

ومضات عثمانية

محمد يوسف العوض

بالعلم نرتقي
مركز الكتاب الأكاديمي

ومضات عثمانية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2017 / /)

._عمان: مركز الكتاب الاكاديمي، 2017

()ص.

ر.إ.: / / 2017

الواصفات: /

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2018

ISBN978-9957-35-253-0 (ردمك)



مـــركـــز الكتـــاب الأكاديمـــي

عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري

ص . ب : 11732 عمّـــان (1061) الأردن

تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+

الموقـــع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net

ومضات عثمانية

محمد يوسف العوض

تقديم

خليل ابراهيم عودة

مركز الكتاب الأكاديمي

إهداء

لدم سيزهر أملاً... إلى كل الدماء الصارخة بوجه جلادها...

مقدمة

الأمة التي لا تحترم تاريخها ومرجعيتها وإرثها الحضاري المتمثل بتاريخها وتتجه إلى تزويره لصالح حقبة زمنية معينة هي بلا شك أمة فقدت ضميرها الذي لن يمكّنها من إعادة حركة سيرورتها، وهي على هذا النحو تحتاج إلى الدعامات الأولى للمقاومة ما بين ضميرها التاريخي وبعدها الأخلاقي الذي بات ينازع البقاء وهي على هذا النحو بدت تكشف عن غطاء شرعيتها في الوجود والحياة، ولطالما أوغلت بها أمم لم تعد إلى التاريخ وخرجت منه إلى غير رجعه.

التاريخ هو الإنسان والأرض والزمن أو حيثما وجِدت حركة الإنسان في الزمان والمكان وجد التاريخ، لكن تاريخ الأمم هو حصيلة ذلك الوعي بروح الأمة من كل أفرادها المتمثل سلوكاً وقيم وحركة.

ولأنه من المتعذر بل من المستحيل فصل العروبة عن الإسلام، ذلك لأن الأمة العربية لم يكن لها ذلك الحضور قبل الإسلام. وبفضل الإسلام وفضل هذا الشرف العظيم الذي أتاح لهذه الأمة أن تكتشف طاقاتها، اقترنت هذه الأمة اقترانا غير قابل للفصل. فهي التي حملت الراية الأولى للفتوحات الإسلامية وبلُغتها نزل القرآن الكريم وعلى رجل منها هو سيد وإمام المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام.

في مرحلة عصيبة من تاريخ أمتنا كانت إحدى القبائل التركمانية قد غادرت موطنها فراراً من المغول ناحية منطقة الأناضول حيث وصلت إلى موقع إقتتال وحروب، واستطاعت هذه القبيلة أن تستلم راية الإسلام وتسود الأمم لقرون عديدة وتُستخلف بعد وهن.

البطل الأول الذي أخذ قراره الحاسم في لحظة توفيق إستطاع هو وأبناءه إعادة تشكيل التاريخ عبر قرون متتالية، كان الأتراك يكرسون ثقافة وحضارة روح الإسلام قيماً وأخلاقاً وعزيمة. وكان هذا الرجل المبارك -أرطغرل- ومن تلك اللحظة التاريخية

التي قرر دخول المعركة مع أهل ملّته، وكأن هذا الرجل يولد في قلب كل سلطان إلى آخر لحظة من الدولة العثمانية وليجد ابنه عثمان ذلك السلوك العملي بوصيته حيث يقول لابنه: ((نحن بالإسلام نحيا ومن أجله نموت)). هذا النقاء الروحي العجيب وتلك الفطرة البسيطة السليمة تتمثل مواقف تاريخية لسير هؤلاء السلاطين.

يقف هذا الكتاب على سير هؤلاء السلاطين المتمثل بأعلى درجات الالتزام الديني والأخلاقي، بلغة قصصية بسيطة يكشف لنا عن فطرة لم تلوث وعن نفوس أبية لا ترضى الدنية. الدولة العثمانية الإسلامية التي لم تهادن الشرق أو الغرب للحظة واحدة، الدول الإسلامية التي أنقذت العالم الإسلامي من طمع الطامعين.

هذه القصص المستقاة من ورع وتضحيات ومآثر لم تتوقف على السلاطين، بل طالت كل شرائح المجتمع من علماء وقادة جيوش وفقهاء وعامّة. مما يؤشر إلى حقيقة الدولة الإسلامية العثمانية التي أنزلت شرع الله إلى الواقع سلوكاً أخلاقياً غدا ثقافة أمة لكل مفاصل حياتها وشرائحها.

إنها مبادرة من شاب غيور أكتشف أن تزوير التاريخ هو عينه تزوير لأمة، ولن يصلح حالها إلّا إذا أعدنا الأمور إلى نصابها. كتاب بقدر ما يعيد تصحيح حقبة تاريخية بقدر ما يعين إلى زحزحة التاريخ إلى الطريق السليم والصحيح، لن تخلو هذه الأمة من مبادرين غيورين على تاريخ أمتهم، شحذاً لسير رجالاتها وعلمائها وعامّتها.

خليل ابراهيم عودة

مقدمة المؤلف

أن التاريخ تُسجّل حروفه وتُصنع صفحاته من قِبل من عاش بعد أحداثه. لذلك تهتم الأمم بصياغة وحماية تاريخها ونشره لأنه يعد أحد أهم المرجعيات في تشكيل ثقافة المجتمع وفكره الذي يقود الأمة إلى مصاف الدول المتقدمة. ولو نظرنا إلى ما تقدمه أمتنا العربية والإسلامية في هذا الشأن من حماية تاريخها الذي يشكل المرجعية والمعين الذي تستمد منه شخصيتنا، لتبين لنا سبب تأخرنا وضعفنا في حماية ثقافتنا وهويتنا ضد العولمة الثقافية وخصوصا الثقافة الغربية، وإضافة إلى تقصيرنا فهناك كم هائل من التشويه والتحريف يتعرض له تاريخنا بشكل عام والعثماني على وجه الخصوص انتقاماً من الدور الذي لعبته في حماية الأمة الإسلامية، وما يشكله من نموذج إلهامي لإعادة لحمتها وإقامة وحدتها.

ومن هذا المنطلق ومن باب المسؤولية يأتي هذا الكتاب ليتناول حقبة مهمة جداً من تاريخنا الإسلامي، ودولة من أطول الدول الإسلامية عمراً وجهاداً وعدلاً.

وهذا الكتاب ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو مجموعة دروس وعبر وقصص من تاريخنا العثماني نقدمها بأسلوب قصصي بسيط، موجه إلى كافه الشرائح الاجتماعية. هدفها تغيير الصورة المشوهة في أذهاننا عن العثمانيين وبناء اللبنة الأساسية في فهم التاريخ العثماني الصحيح.

وأمّا كاتب هذه السطور فليس مؤرخاً أو أستاذاً في التاريخ، وما حالي بهم إلا كبائع زمزم على أهل مكة. إنما أنا باحث وناقل قرأت من كتبهم فلخصت لكم هذا الكتبب، راجياً من اللـه البركة والإخلاص في العمل.

دولة جهاد منذ البداية

كان الأمير أرطغرل[1] يسير بقبيلته الصغيرة باحثاً عن مكان جديد ليعيش فيه بعد أن قام المغول باجتياح العالم الإسلامي، وفي أثناء مسيرهم يسمع عن بُعد صوت قتال وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً عنيفا بين جيشين[2]، جيش يحمل رايات إسلامية والآخر يحمل رايات صليبية، فما كان من أرطغرل سوى أن أمر على الفور فرسان القبيلة الـ 400 فارس بأن يتجهزوا للقتال لنصرة الجيش الإسلامي المهزوم دون أن يتعرف عليهم. وبكل ثبات وحماس تجهز الفرسان وانطلقوا كالسهام إلى قلب المعركة.

أصاب الذهول الأطراف المتحاربة واستطاع ارطغرل بجيشه الصغير أن يقلب الموازين ويغير النتيجة من خسارة إلى نصر بحمد الله وانتصر الجيش الإسلامي.

فرح الأمير السلجوقي علاء الدين[3] بهم كثيراً لعقيدتهم النقية وشجاعتهم المطلقة. وبعد الحديث معهم شكرهم على نصرهم له وقدّر لهم موقفهم فأقطعهم أرضاً على حدود دولته مع البيزنطيين. ومن هذه الأرض الصغيرة نشأت الدولة العثمانية التي امتدت لتشكل ربع دول العالم في الوقت الحالي ومن نسل هذا الفارس الشجاع حكم أقوى سلاطين الأرض.

1 ارطغرل بن سليمان شاه 1191-1281 , هو والد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية.

2 تشير بعض المصادر أن الجيش الآخر كان من الخوارزميين وليس بيزنطيين.

3 علاء الدين كيقباد بن كيكاوس , سلطان سلاجقة الروم في الفترة ما بين 1220-1237.

دولة أرادها اللـه

عندما اجتاحت جحافل المغول العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر ودخلت عاصمة الدولة العبّاسية بغداد، خرّبت البلاد وقتلت العباد وقتلت آخر خليفة عبّاسي (المستعصم باللـه[1]).

كانت هذه الحادثة أكبر مصيبة حلّت بالإسلام كما قال ابن الأثير[2]، فلم يعد هناك دولة ولا خلافة فانهارت الدولة العباسية بشكل كامل وتشتت الناس.

في نفس هذا العام (1258) ولِد عثمان بن ارطغرل[3] أول سلاطين الدولة العثمانية ليؤسس بعدها دولة دوّخت العالم وأذلّت الشرك وأعداء الأمّة، فسبحان اللـه من رحم المعاناة يولد الأمل.

قصة زواج السلطان عثمان

يتصف السلطان عثمان بأخلاقه الرفيعة العالية وحسن تربيته، كما كان شديد التدين والزهد والتقشف، والكل يعلم أنه لم يترك خلفه سوى ثوبين وفرس وسيف، كما كان مجيداً للعربية بامتياز وحافظاً للقرآن.

وحدث مرّة "وهو أمير" أن ذهب لزيارة شيخه ومربيه العالِم أده بالي[4] ، وظل بضيافتهِ إلى أن حلّ المساء ، فقام الشيخ بإعداد غرفة لنوم ضيفه الأمير ، وبالفعل دخل

1 هو عبد اللـه بن منصور المستنصر 1213-1258 , هو آخر خليفة عبّاسي في بغداد , قُتل على يد هولاكو.

2 عز الدين الموصلي الملقب بابن الأثير 1160-1233, مؤرخ إسلامي كبير, عاصر صلاح الدين الأيوبي, توفي قبل سقوط بغداد بـ 26 عام , وهو لم يشهد إلّا طلائع الغزو.

3 عثمان بن ارطغرل 1258-1324 , مؤسس الدولة العثمانية واول سلاطينها ومنه أخذت اسمها.

4 الشيخ أده بالي أو أدب عالي كما سمّاه بعض المؤرخين أو الشيخ عطا , وهو عالم تفسير وحديث تلقى تعليمه في الأناضول ودمشق ويُؤرخ مولده عام 1206

عثمان إلى الغرفة المُعدّة له لكي يستريح لكنه لم يستطع النوم والتمدّد لأنه شاهد قرآناً معلقاً على الحائط فظل جالساً على كرسي يسبح ويذكر الله إلى أن غلبهُ النوم على هذه الحال. وما هي إلى ساعات ويستيقظ قبيل الفجر مذهولاً وأنفاسه تتسابق مع نظراته إلى أرجاء الغرفة، استيقظ الأمير وظل جالساً ينتظر أن يستيقظ شيخه الجليل ليخبره بهذا الحلم الذي أيقظه من نومه.

وبالفعل بعد صلاة الفجر جلس إلى شيخه وقصّ عليه الرؤيا، فقد رأى أن البدر يخرج من صدر العالِم الجليل أده بالي ويدخل في صدره ، فيمتلئ صدره بالنور الذي يخرج ويملأ الدنيا نوراً. تبسّم الشيخ عند سماع هذا الكلام وفهِم المغزى وطمأن الأمير عثمان، فأخبره تفسير الرؤيا بأنه سوف يتزوج من ابنتة وأن الله سوف يعز الإسلام به وبذريته التي ستكون من نسلهما وستكون هذه العائلة عائلة جهاد ونور تنشر العدل في كل أرجاء المعمورة.

السلطان عثمان والنصراني

تذكر كل الكتب والمراجع التاريخية التي أرّخت للعثمانيين هذه القصة التي تدل على عدل وعلم السلطان عثمان، فعندما فتح العثمانيون مدينة " قره جه حصار"[1] ودحروا القوات البيزنطية منها على يد أرطغرل عام 1285 تقريباً، عهِد ارطغرل لأبنه الشاب عثمان ولاية القضاء في المدينة، فسار عثمان بالناس سيرة حسنة كان لها الأثر الطيب في نشر الأمان والعدل.

1 هي مدينة في غرب تركيا الحالية .

وحدث مرّه أن تخاصم لديه مسلم ونصراني، فحكم عثمان لصالح النصراني ضد المسلم، فأستغرب النصراني من الحكم إذ كيف يحكم لصالحه وهو على غير دينه.! فسأل عثمان:

((كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك ..؟!))

فأجابه عثمان:

((بل كيف لا أحكم لصالحك وأنت مظلوم ؟، إن ديننا يأمُرنا بأن نحكم بين الناس بالعدل، واللـه الذي نعبده، يقول لنا: " إن اللـه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " صدق اللـه العظيم.))

ذهِل النصراني من سماحة وعدل عثمان، فعاد إلى قومه ورجع بهم جميعاً مسلمون.

العثمانيون وقلعة اولو باد

إن هذه الحادثة التي سوف نذكرها تعتبر من أكثر قصص الوفاء بالعهد، فلقد بلغ حرص العثمانيين على الوفاء بالعهود حداً أثار استغراب الكثير من المؤرخين الغرب، وهذه القصة خير مثال على ذلك.

فعندما حاصر السلطان عثمان قلعة اولو باد[1] لفتحها، أرسل الأمير البيزنطي للسلطان عثمان من أجل الصلح. وكانت نتيجة المفاوضات أن يقوم ذلك الأمير بتسليم القلعة، لكنه إشترط على عثمان أن لا يمر أحد من العثمانيين من فوق الجسر المؤدي إلى القلعة وعليهم إستخدام القوارب فقط.

1 قلعة بيزنطية موجودة في الشمال الغربي من تركيا.

يروي المؤرخ إسماعيل حامي دنشـمند في كتابـه موسـوعة التـاريخ أن العثمانيـين بعد إستلام القلعة لم يستخدموا الجسر لعدة قرون وظلّوا يـدخلونها بواسـطة القـوارب، مع أن الأمير البيزنطي قد يكون قصد مرة فقط، لكـن العثمانيـون أصرّوا عـلى الاسـتمرار باستخدام القوارب لأن الوفاء والأمانة لا تحتمل القصد إنما المواثيق والعهود.

السلطان عثمان يوصي ولده

تذكر كل الكتب والمصادر وصية السلطان عثمان لابنه اورخان[1] عند وفاته، حيـث يوصيه بإكمال مسيرة الجهاد ضد الروم، وأن يلتـزم بتعـاليم الشريعـة الإسـلامية، وتفنّـد هذه الوصية كل الإدعاءات التي تصف حروب العثمانيـين بأنهـا كانـت مـن أجـل الأرض والمال. أمّا نص الوصية:

((يا بني.. إياك أن تخالف تعاليم الـلـه، واستشر علماء الـدين دومـاً، ولا يغرنـك الشيطان بجندك وبمالك، وإيّاك أن تبتعد عن أهل الشريعة، يا بني إن غايتنا هي إرضـاء الـلـه، وأعلم أننا لسنا ممن يقيم الحروب لشهوة حكـم أو مـال، فـنحن بالإسـلام نحيـا ومن أجله نموت، وهذا ما أنت أهل له. يـا بنـي.. إن نشر الإسـلام وهدايـة النـاس إليـه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانه في عنقك سيسألك الـلـه عنها.

يا بني إنني أنتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنـك سـتكون عـادلاً بـين الرعيـة، مجاهداً في سبيل الـلـه لنشر دين الإسلام.

يا بني إنني أوصيك بعلماء الأمة، أِنزل على مشورتهم، فإنهم سيدلونك على الخير.

1 هو ثاني السلاطين العثمانين , حكم بعد وفاه والده عثمان 1326-1360.

يا بني إياك أن تفعل أمراً لا يرضي اللـه، فإن طريقنا الوحيد هو طريق اللـه، ومقصدنا الوحيد هو نشر الإسلام، ووصيتي لك ولكل أبنائي وأصدقائي أديموا علو الدين والجهاد وأمسكوا براية الإسلام عالية، واخدموا الإسلام، لأن اللـه وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان. ومن انحرف من أبنائي عن الحق والعدل حُرِم من شفاعة سيد زمرة الأنبياء صلى اللـه عليه وسلم. أقترَب أجلي بإذن اللـه، يا بني أسلِمُك هذه الدولة وأستودعك المولى، اعدل في جميع شؤونك)).

العدل يسبق السيف

لم يتعرض الأمير اورخان بن عثمان لأي مقاومة أثناء فتح مدينة بورصة[1] عام 1326، حيث سلّم أمير بورصة المدينة صلحاً بعد حصار طويل. وأتخذ الأمير اورخان تلك المدينة عاصمة للدولة العثمانية، وبينما اورخان يجلس مع أعيان المدينة الذي جاؤوا إليه لتقديم الولاء، سأل الأمير وزير إمارة بورصة الذي ساعد على استسلام وتسليم المدينة عن سبب تسليمهم بلدهم، فقال له ذلك الوزير:

((هناك عدة أسباب يا مولاي.. إن دولتكم أصبحت تتّسع وتكبر بسرعة بينما دولتُنا بدأت تتهاوى يوماً بعد يوم وتموت. كما إنكم ألحقتم مزارعنا وقرانا المحيطة بالمدينة إلى حكمكم، فرأينا العدل والأمان الذي يعيشه رعايانا الفلاحين في ظلكم، ولاحظنا أنكم لا تأخذون شيء من أموالهم أو مزارعهم، كما شاهدنا أن هؤلاء المساكين فرِحوا كثيراً بحكمكم وصاروا وكأنهم لا يعرفوننا ولا يذكروننا، فلما رأينا طمأنينتهم وراحتهم رغِبنا نحن أيضاً بحُكمِكم)).

1 تقع في شمال غرب تركيا, تعتبر من أهم المدن العثمانية وتشتهر بطبيعتها الخلابة.

ودخل هذا الوزير[1] الإسلام ومعه الكثير من سكان المدينة وظلّت مدينة بورصة عاصمة للدولة حتى فتح العثمانيون مدينة أدرنة.

بثمانين فارس

قبل أن يفتح المسلمون الأندلس أرسل موسى بن نصير حملة استكشافية إليها، لتكون هذه الحملة بداية فتح الأندلس ودخول الإسلام في غرب أوروبا. وكذلك فعل العثمانيون حيث أرسل السلطان أورخان ابنه الفارس سليمان مع ثمانين فارساً كحملة استكشافية لشرق أوروبا، لتكون تلك أول مرّة يدخل فيها المسلمون إلى شرق أوروبا، وكان على رأس هذه الحملة كما ذكرنا الأمير سليمان وهو فارس شجاع، واستطاعوا بهذا العدد الصغير التمهيد لدخول الجيوش العثمانية عن طريق الاستيلاء على بعض الحصون الهامّة. لتبدأ بعد ذلك صفحة جديدة من صفحات الإسلام في شرق أوروبا التي لم يدخلها قبل ذلك الإسلام ولا المسلمين.

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها

إن خير مثال على هذا الحديث الشريف هو ما حدث في هذه القصة الرائعة، فالموقف الذي أبداه السلطان مراد[2] بن أورخان من ولده ساوجي قمّة الامتثال لتعاليم الإسلام والرجولة ولأحكام الشريعة الإسلامية.

الذي حدث أنه أثناء فترة حكم السلطان مراد، خرج الأمير ساوجي ابن السلطان وتعاون مع ابن الإمبراطور البيزنطي يوانيس، وسارا على رأس جيش من البيزنطيين وبعض أتباع الأمير من الجنود العثمانيين لمحاربة الجيش العثماني، كانت نتيجة المعركة هزيمة الخونة والبيزنطيين، وكان من بين الأسرى الأمير ساوجي.

1 يقال أن اسمه اقرينوس وهو أمير بيزنطي أشهر إسلامه أمام اورخان وبايع والده عثمان , فأعطي لقب بك تكريماً له.

2 السلطان مراد بن عثمان ثالث سلاطين الدولة العثمانية, تولى الحكم من فترة 1362-1389.

تم تقديم الأمير وأعوانه إلى القضاء ليقول كلمته في حقهم، وبالفعل تم إصدار الحكم الشرعي بالقتل عليهم جميعاً، "وهي عقوبة الخروج على الحاكم ومحاربة المسلمين والتآمر مع الأعداء".

قرّر بعض الوزراء إصدار أمر تأخير إعدام الأمير خوفاً على السلطان من أن يتأثر في ظل هذه الظروف الصعبة. لكن تأتي الأوامر سريعة وصارمة من السلطان بأن لا تأخذهم أي رأفة ورحمة بالخونة، وان يتم تنفيذ حكم القضاة، حتّى وإن كان ابن السلطان بينهم، فمصلحة الدولة والدين فوق كل اعتبار. وبالفعل تم إعدامهم جميعاً بأمر السلطان، وتأثر السلطان من هذه الحادثة التي أحزنته كثيراً.

السلطان الشهيد

إن السلطان مراد الأول هو من يحمل لقب السلطان الشهيد. كان السلطان مراد عالماً، ورعاً، شديد التدين، وعلى يديه فتحت بلغاريا وصربيا. وبالرغم من خوضه 37 معركة بنفسه ضد الصليبيين وانتصاره بكل تلك المعارك، إلا انه لم يكن يحارب لسفك الدماء أو شهوة في الملك، ومما يدل على ذلك هذه القصة؛ فعندما أَسَرَ السلطان مراد أمير البلغار لم يقم بإذلاله، بل صرف له راتباً وجعله حاكماً مرتبطاً به على النصف الآخر من بلغاريا.

وفي معركة قوصوة التي حدثت عام 1389، كان يتضرع لله بالدعاء، ويؤمن بأن النصر من عند الله، وكان مما دعا به قبيل المعركة:

((يا الله يا رحيم.. يا رب السموات، يا من تتقبل الدعاء، لا تُخزني يا رحمن يا رحيم، إستجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة، أرسل السماء علينا مدراراً، وبدد سحب الظلام لكي نرى عدونا. ما نحن سوى عبيدك المذنبين، إنك الوهاب ونحن فقرائك، ما أنا سوى عبدُك الفقير المتضرع ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولا يحمِلني طلب المغنم، فأنا لا أطمع إلّا في رضاك يا الله يا عليم، يا موجود في كل

الوجود، أفديك بروحي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام عدوهم، يا اللـه يا أرحم الراحمين لا تجعلني سبباً في موتهم، بل اجعلهـم المنـتصرين، إن روحـي أبذلها فداءً لك، يا رب إنني وددت ولا زلت دوماً أبغي الشهادة)).

وما هي إلى ساعات واشـتبكت الجيـوش العثمانيـة بـالقوات الصـليبية، وتحقـق النصر للمسلمين وللسلطان الورع، ولقد استجاب اللـه لدعاء السـلطان وتحقـق الـنصر، وبينما يتفقد السلطان مراد ساحة المعركة[1] ويطمئن على الجرحى، تعرض لضربـة خنجـر من جندي صليبي جريح، فنُقل على الفور إلى خيمته واستدعوا الجرّاحين، لكن يبـدو أن الضربة كانت قاتلة. وكان من كلماته الأخيرة قبيل استشهاده:

((لا يسعني عند موتي، إلا أن أشكر اللـه، إنه علّام الغيوب المتقبل دعاء الفقـير، أشهد أن لا إله إلّا اللـه وأشهد أن محمد رسول اللـه، وليس يستحق الشـكر والثنـاء إلّا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية، ورأيت نصر جند الإسلام.

أطيعوا ابني بايزيد[2] و ولا تعـذبوا الأسرى ولا تـؤذونهم ولا تسـلبوهم، وأودّعكـم منذ هذه اللحظة وأودّع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة اللـه فهو الذي يحفـظ دولتنـا من كل سوء)).

فتحقق له النصر والشهادة، وكما تروي بعض المصـادر أنـه كُفّـن بـنفس العمامـة التي كان يلبسها على رأسه[3].

1 معركة قوصوة "كوسوفو "حدثت في عام 1389, وانـتصر بهـا العثمانيـين عـلى تحـالف صـليبي مكـون مـن الصرب والألبان بقيادة اوروك الخامس.

2 السلطان بايزيد بن مراد الأول, رابع السلاطين حكم بعد استشهاد والده بين أعوام 1389-1402.

3 كانت هذه من عادات التصوف والشجاعة, وهي ارتداء عمامة كبيرة ليست لغطـاء الـرأس فقـط بـل هـي كفن للسلطان العثماني.

السلطان بايزيد والقاضي شمس الدين

يُعتبر السلطان بايزيد من أكثر السلاطين غـزواً وجهـاداً وشراسـة في أرض المعـارك، ومع أنه سلطان المسلمين إلّا أن القانون يُطبق عليه مثل أي شخص مـن الرعيـة، وهـذه القصة سوف توضح المقصود.

يُذكر أنه في أحد الأيام قام أحد سكان مدينة بورصة بطلـب مـن السـلطان بـأن يأتي ويشـهد بقضـيته التـي يبـدو أن السـلطان عـلى علـم بحيثياتهـا، وبالفعـل لم يتـأخر السلطان عن الشهادة وكأنه شـخص عـادي. وعنـدما طلـب القـاضي شـمس الـدين[1] مـن الرجل إحضار شهوده، دخل السلطان بايزيد.

إستغرب الحضور والقاضي، لكن قبل أن يتكلم السلطان قال له القاضي:

((عـذراً أيهـا السـلطان.. أنـا لا أقبلـك شـاهداً في هـذه القضـية، لأنـك لا تـؤدي صلواتك جماعة. والشخص الذي لا يصلي في جماعة قد يكذب.))

ثم التفت إلى الرجل وقال له:

((أيها الرجل أحضر لي شاهدا أخر غير السلطان)).

فما كان من السلطان إلا أن ألتف وخرج من المحكمة دون أن يتكلم أي حرف أو يبدي انزعاجه.

بعد هذه الحادثة التي أثّرت بالسلطان يقال أنه لم يترك بعدها صلاة الجماعة.

---

1 شمس الدين محمد بن حمزة الفناري 1350-1431. عالم وفقيه من كبـار علـماء الإسـلام,تلقـى تعليمـه في بورصة, وانتقل إلى مصر لإكمال تعليمه في المذهب الحنفي. عُين قاضي مدينة بورصة في عهـد بايزيـد, ثـم انتقل إلى الحجاز والشام وعاد في عهد مراد الثاني.

هذه الحادثة تصور مدى عدل وشجاعة كل من السلطان والقاضي شمس الدين.

السلطان بايزيد والكونت دي نيفر

بعد انتصار العثمانيين في معركة كوسوفو عام 1389، تكاثفت الجهود في كل أوروبا لمحاربة العثمانيين. وأرسل ملك المجر سيجمند[1] رجاله إلى كل المدن الأوروبية وملوكها لحشد الهمم. كما دعا البابا كل أتباعه المسيحيين للمشاركة وطرد العثمانيين من أوروبا. واستطاع سيجمند من تشكيل تحالف مرعب من فرنسا، ألمانيا، ويلز، بلغاريا والكثير من المؤمنين الذين جاؤوا لنصرته من سائر أوروبا. فخرج لهم السلطان بايزيد بجيشه وحيداً، والتقوا في موقعة نيغوبولي[2]، التحم الجيشان ودارت معركة من أشد المعارك، وضربَ السلطان بايزيد الذي نزلَ مع الجند أروع الأمثلة بالصبر والثبات، وأستطاع أن يدحر القوات الصليبية، أمّا سيجمند المتكبر ففرّ من المعركة وأستطاع أن ينجو بنفسه.

وقع الكثير من جيش سيجمند في الأسر وكان ممن أُسر الأمير الفرنسي دي نيفر، قائد قوات بورغونيا وولي عهدها. وقد ألزم هذا الكونت على القسم بألّا يعود إلى حرب العثمانيين. قرر بايزيد إطلاق سراح الأمراء الأسرى مقابل دفع فدية، وأراد السلطان بايزيد أن يُحلّ الكونت من قسمه. فقال له بايزيد:

((أيها الكونت.. لكَ أن تعود مرة أخرى لمحاربتي، لكي تمسح العار الذي لحِق بك. وأعلم أنني لا أخاف من عودتك وإلّا ما كنت أطلقت سراحك، تعال وقتما تشاء

1 ملك المجر وكرواتيا, كما حكم أجزاء من ألمانيا وايطاليا, وحصل على لقب الإمبراطور الروماني المقدس .

2 مدينة تقع في بلغاريا الحالية, ومنها أخذت المعركة إسمها.

ستجدني وجنودي أمامك. فأنا وِلِدتُ لكي أنتصر على المحاربين الصليبيين الذين أجدهم أمامي)).

العجوز والنصراني وقصة بناء جامع بورصة الكبير

بعد الإنتصار الساحق في معركة نيغوبولي كما ذكرنا بالقصة السابقة، قرّر السلطان بايزيد أن يبني مسجداً[1] كبيراً لا مثيل له في مدينة بورصة شكراً لله على النصر من الأموال التي غنمها في المعركة.

وكلّف لذلك بعض المهندسين المهرة، وبالفعل تم تحديد أفضل مكان بالمدينة، ولأن المسجد يحوي أيضاً مدارس وحدائق وبعض المرافق فقد كان يحتاج إلى مساحة كبيرة.

أخذ المشرفون بشراء المنازل والساحات وتعويض الأهالي بمبالغ ممتازة، ألّا أن هناك عجوز رفضت البيع، ورفض أيضاً رجلٌ نصراني بيع منزلهِ بعد علِمه بأن مسجداً سيُقام مكان بيته.

وبعد الكثير من المحاولات، استطاعوا أن يقنعوا النصراني ببيع منزله بمبلغ ضخم، لكنه إشترط أن لا تقام صلاة في مكان بيته، ولتفادي هذه المشكلة أُجبِر المهندسون على وضع نافورة ماء للوضوء مكان البيت.

أمّا العجوز فقد رفضت رغم كل المحاولات والإغراءات. وإن حصل ولم يستطيعوا شراء المنزل فبالتأكيد سيتغير شكل وحجم الجامع.

---

1 هو مسجد بورصة الكبر أو " اولو جامع " اكتمل بناءه عام 1400. على الطراز السلجوقي, ويعتبر من أهم معالم المدينة.

توقف العمل بمباشرة البناء وعندما علم السلطان بالأمر قرّر أن يذهب بنفسه ويطلب منها أن تبيع بيتها لعلّها تقدر مجيئه، ومع ذلك رفضت العجوز العنيدة طلب السلطان، فخرج وهو يخفي ألمه وحزنه الشديدين، ونتيجة لذلك تقرر تأجيل البناء.

لكن لم يمر يوم واحد حتى جاءت العجوز مسرعة ومعها بعض المال، فأخذت تصيح وهي تلهث:

((خذوا هذا المال، وخذوا منزلي من غير نقود صدقة لوجه الله، لكن أرجوكم لا توقفوا البناء وباشروا به سريعاً)).

أستغرب المشرفين من موقف العجوز، وعندما سألوها عن السبب، قالت:

((في الليلة التي جاءني بها السلطان، حلِمتُ أن الساعة قامت وكل الناس محشورون، كان منظراً تقشعر له الأبدان، فقام سيدنا محمد عليه السلام يشفع للمسلمين، وناداهم لدخول الجنة، فأخذت الناس تطير في السماء إلى الجنة، أمّا أنا فلا أستطيع الحراك ولا أستطيع التنفس، وأصيح بصوت عالٍ:

" لا تتركوني أرجوكم! "

وكان حولي من هم مثلي يبكون بصوت مرتفع، وكان ممن طار مع المسلمين السلطان بايزيد. لذلك يا أبنائي خذوا هذا المال والمنزل لعل الله ينقذني بهما وأدخل الجنة)).

وبالفعل تمت المباشرة بالبناء، واستطاعوا بالنهاية أن يبنوه كما كان مخططاً له باستثناء تلك النافورة في منتصف المسجد. فإذا ذهبت يوما إلى مدينة بورصة سوف تشاهد مسجداً كبير ذو قباب كثيرة، فصلِّ وترحم على العجوز والسلطان المجاهد بايزيد.

قاضٍ يحكم على نفسه

قد يبدوا عنوان هذه القصة غريب، لكن بعد أن نرويها سوف تتعرف على أغرب قصص القضاء، وقمة العدل في الحكم بين الناس.

تعود القصة لـزمن بايزيـد الأول وفي مدينـة بورصـة بالتحديـد، فلـما كـان العـالم الشهير الملا فناري قاضياً على المدينة، وقبل أن يصبح شيخاً للإسلام[1]، حصل أن جاءه رجلٌ إشترى حصاناً من رجل آخر، وأكتشف بعد عودته إلى المنـزل أن الحصـان الـذي أشـتراه مريض، فذهب إلى البائع لكي يعيده ويسترد نقوده، فرفض البائع إرجاع الحصان. ذهـب الرجل إلى القاضي ملا فناري فلم يجـده بـدار القضـاء فعـاد إلى البيـت، وفي الليـل نَفـق الحصان.

في اليوم التالي ذهب الرجل إلى القاضي مرة أخرى، فوجده وأخبره بـأمر الحصـان. وكيف تعرض للغش ويريد أن يشتكي على البائع ويسترد ماله. فقال القاضي:

((يا بني.. إن الحصان قد نَفق ولن يستطيع المختصّون الآن التعـرف عـلى سـبب موته، ولا يوجد معك دليل قوي على أنك اشتريت الحصان وهـو مـريض، فلـو كنـت أنـا موجوداً على رأس عملي البارحـة لاسـتطعنا تحديـد مـرض الحصـان، هـل هـو قـديم أم جديد. أمّا الآن فليس إلى ذلك سبيل، لذلك أنا من سيدفع ثمن الحصان)).

فقال الرجل بدهشة:

((ولِم تدفع أنت، ولا ذنب لك بالموضوع.؟!)).

فقال الملا فناري:

---

1 أطلق لقب شيخ الإسلام على المفتي الأكبر في الدولة العثمانية, ومـن المهـام الموكلـة إليـه أيضـا التعلـيم في الدولة والأوقاف وتنظيم البلديات والقضاء.

((هكذا يبدو لك يا بني، لكن ذنبي عظيم، فلو جئتني وأنا على رأس عملي لما حدث هذا لك. وبسبب هذا التقصير سأتحمل أنا الثمن)).

وتم تعويض الرجل بثمن الحصان من جيب القاضي العادل.

مدينة تبحث عن الفتح

حكم العثمانيون البلاد المفتوحة في البلقان بعدل ورحمة لا توصف، حتى أن الراهب الشهير مارتن لوثر[1] تغنّى بأسلوب حكمهم العادل، وكان معظم الناس تتمنى قدوم العثمانيين وتخلصهم من حياة الظلم والقسوة التي كانوا يعيشونها تحت سيوف وضرائب ملوكهم، وخير مثال على هذا الكلام ما حدث في القصة الغريبة.

في عام 1431 تقريباً، إجتمع أعيان ووجهاء مدينة يوانينا[2] وهي مدينة تحت حكم دولة الصرب، وقرروا الذهاب لملاقاة السلطان[3].

وبالفعل دخل الوفد على السلطان وأعطوه مفتاح المدينة ورجوه أن يأتي ويضم المدينة إلى حكم العثمانيين كسائر المدن المجاورة، ووصفوا للسلطان مدى الظلم الذي يعانوه من حكامهم رغم أنهم نصارى مثلهم، لكنهم شاهدوا من المدن المجاورة كيف يشعر الفلاحون بالسعادة والأمان والعدل، وأنهم جاهزون ليحكمهم بالشريعة الإسلامية.

إستجاب السلطان لنداء أهالي المدينة، ووعدهم بمعاملة عادلة كباقي الرعية دون تمييز، وحرّك أحد الجيوش إليها وضمّها إلى الدولة العثمانية.

---

1 راهب ألماني وقسيس 1483-1546, ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا, بعد اعتراضه على صكوك الغفران.

2 مدينة يونانية تقع في غرب اليونان, وتسمى يانية أيضاً, ضلت تحت حكم العثمانيين إلى عام 1913.

3 هو السلطان مراد الثاني سادس السلاطين العثمانيين من 1421-1451.

قبر بلا قبة

قد لا يختلف المؤرخون في جوانب شخصية السلطان مراد الثاني، فالكل يتفق على أنه كان فارساً، عالماً، ورعاً، وزاهداً إلى أبعد درجة. كان لباسه بسيطاً إلى حد أنك لا تميزه عن العامّة. لكن أهم ما يميز شخصية السلطان مراد الثاني هي زهده بلا شك التي تتجلى في تنازله عن الحكم لولده الصغير محمد الفاتح ولم يتجاوز عمره الرابعة عشر عاماً لكي يتفرغ للعلم والعبادة. تبقى وصيته التي تركها أكبر دليل على زهده وتواضعه، فقد أملى قبل وفاته بخمسة سنوات وصيته التي صدّقها من العلماء جاء فيها:

" ألّا تسدد نفقات دفنه من خزينة الدولة، ورهن خاتمين له في حال عدم تسديد نفقات الجنازة من ماله الخاص، وطلب أن يكون قبره مكشوفاً بلا سقف ولا قبة، وأن لا يُبنى له ضريحاً كالسلاطين الكبار، لكي يهطل على قبره مطر رحمة الله ".

وبموجب وصيته تُرك قبره في بورصة مكشوفاً دون سقف وجدران.

الفاتح

يُعتبر السلطان محمد الفاتح أشهر السلاطين العثمانيين على الإطلاق، وتعود شهرته لفوزه ببشارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بفتح مدينة القسطنطينية.

قال رسول الله:

" لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".

ولفتحه تلك المدينة العنيدة حاز على قدسية بين المسلمين لانطباق الحديث الشريف عليه ونيله مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. لكن الذي لا يعرفه أحد هو أن السلطان أخذ هذا اللقب قبل أن يفتح المدينة، وقصّة هذا اللقب أنه يوم مولد السلطان محمد عام 1429، كان والده السلطان مراد الثاني يقرأ القرآن، وعند انتهائه

من قراءه سورة محمد همّ بقراءة سورة الفتح، فطُرق الباب قبل أن يبدأ وبُشّر بمولود، أستبشر السلطان مراد خيراً وقال:

((ليكن اسمه محمد الفتح، لعله من يكون صاحب البشارة بفتح القسطنطينية))

فكبُر محمد الفاتح وكبر معه أسمه الذي حملة بفتح القسطنطينية.

محمد الفاتح والشيخ كوراني

كان من العادات العثمانية أن يتلقى الأمير العثماني دروساَ صعبة ومكثفة في القرآن والفقه والتاريخ والشعر والكثير من العلوم الأخرى حتى سن الرابع عشرة، ولمّا كان محمد الفاتح أميراً على أماسيا أرسل إليه والده الكثير من المعلمين والشيوخ، لكنه كان يلهو ولا يمتثل لأمرهم ولم يحفظ شيئاً، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، الأمر الذي أزعج السلطان كثيراً، فطلب السلطان هذه المرة شيخاً ذو مهابة وغلظة، فأشاروا عليه بالإمام الكوراني[1]، فجعله معلماً ومربياً للفاتح وأمره بأن يعده جيداً حتى لو أقتضى الأمر للضرب. وبالفعل سافر الإمام إلى أماسيا، ودخل على الأمير وبيده عصا، وقال له:

((يا بني إني من اليوم معلمك وأستاذك بأمر من والدك السلطان، وأرجو أن تطيعني وتمتثل لأمري)).

فضحك الأمير من هذا الكلام، وأخذ يتصرف وكأن المعلم غير موجود. فصاح الشيخ بالأمير وضربه في ذلك المجلس ضرباً مبرحاً ثم أمره بالجلوس. وبالفعل جلس محمد الفاتح وهو يتألم وبدأ أول درس له.

1 احمد بن إسماعيل الكوراني الشافعي1410-1488, مفسر كردي الأصل ولد في شمال العراق, سافر في طلب العلم إلى بغداد والشام والقاهرة, له مؤلفات كثيرة وكبيرة أشهرها غاية الأماني في تفسير السبع المثاني.

من بعد هذا اليوم ألتزم محمد الفاتح بالدروس وكان يرتعد خوفاً من معلمه الكوراني الذي بذل معه جهداً كبيراً وبفترة وجيزة أستطاع الفاتح وبجهود هذا المعلم أن يختم القرآن ويكمل الدروس المخصصة.

بين عظيمين

كان السلطان مراد الثاني كثير الورع والتدين، وكثيراً ما كان يخلو بنفسه للعبادة، فأخذ يُعد إبنه محمد الفاتح ليستلم الحكم منه، فهو لا يريد من هذه الدنيا سوى الانعزال والتفرغ للعلم والعبادة.

وبالفعل ما أن أصبح محمد الفاتح بعمر الرابعة عشر وأكمل تحصيله العلمي تنازل له السلطان مراد عن الحكم وأعدّ له بِطانة من الوزراء والعلماء الصالحين ليساعدوه في شؤون الحكم.

إستغل ملك المجر صعود الفتى الصغير إلى سدة الحكم، وظن أن الفرصة مواتية للهجوم على أملاك الدولة العثمانية ومسح العار الذي لحقه بسبب خسارته السابقة، فأعلن الحرب وألغى الهدنة والمعاهدات التي وقعها مع السلطان مراد.

إجتمع السلطان محمد الفاتح بالوزراء وبعد النقاش الطويل، أشاروا على الفاتح بأن يستدعى والده السلطان مراد ويتنازل له عن الحكم ليقود الجيش، فالسلطان مراد ذو هيبة عظيمة وقائد عسكري فذ، ورجوعه سوف يعطي دفعة قوية للجيش وخوف لدى ملك المجر الخائن.

فكتب السلطان محمد الفاتح رسالة لوالده يطلب منه العودة والتربع على عرش الدولة تحسباً لوقوع معركة كبيره مع المجر. لكن السلطان مراد رفض الرجوع وكتب إلى الفاتح بأنه هو السلطان الآن وعليه أن يتحمل المسؤولية ويدافع عن شرفه وشرف أمة سيدنا محمد. فكتب إليه السلطان محمد الفاتح:

((إن كنتَ أنت السلطان فتعال وقف على قيـادة جيشـك، وحمايـة دولتـك مـن الكفار، وإن كنت أنا السلطان فأنني آمرك بالقدوم حالاً وقيادة الجـيش وعـدم مخالفـة ولي أمرك)).

فما كان من السلطان مراد إلّا العودة، فقاد الجيوش إلى ساحة فارنـا والتقـى مـع الخائن ملك المجر ودارت معركة شرسة، إستطاع بها السـلطان مـراد أن يـدحر ويسـحق الجيوش المجرية وكان النصر الحاسم للمسلمين بتاريخ 10 نوفمبر سنه 1444.

قلعة روملي حصار

تعتبر قلعة "روملي حصار" من القلاع الهامة على ضـفاف البوسـفور[1] التـي بناهـا السلطان محمد الفاتح عندما أراد أن يستعد لفـتح القسـطنطينية. وهـي قلعـة ضـخمة جداً تحوي الكثير من الأسوار العالية، وقد شكل بناءها اعتراض الإمبراطـور البيزنطـي. إلّا أن السلطان ألقى باعتراض الإمبراطور البيزنطي بعرض الحائط، وأمـر عـلى الفـور بالبنـاء بعد أن أتطّلع على التصميمات، لكن الوقـت الـذي أعطـاه السـلطان للمهندسـين وقـت قصير جداً ولا يكفي حتى لبناء سور واحد من أسوارها، فقلعـة ضـخمة كـروملي حصـار تحتاج إلى سنوات طويلة. إلا أن السلطان أمرهم بتنفيذ أقصى جهدهم، وبالفعـل بـدأت عملية البناء وما هي إلا أيام ويشاهد العمال والمهندسين أحـد الرجـال مـن غـير العـمال يحمل الحجارة على أكتافه ينقلها إلا مكان البناء، وعند الاقتراب منه أتضح أنه السـلطان قد لبس ملابس العمل وأخذ يحمل الحجارة الثقيلة عـلى أكتافـه والعـرق يتصـبب منـه وينادي بصوت عالٍ ويشجعهم.

1 هو مضيق مائي يفصل بين أوروبـا وأسـيا ويقسـم اسـطنبول إلى قسـمين, القسـم الأوروبي وفيـه اسـطنبول القديمة العاصمة وقسم أسيوي، ويقطع هذا المضيق اليوم ثلاثة جسور معلّقة تربط المدينة.

كان منظراً اقشعرت له جلود كل الحاضرين، فدبّت الحماسة والنشاط كل العمال والمهندسين وتحول المكان إلا خليه نحل تعمل نهارا وليلا، وبعد فترة يأتي مسوؤل البناء ليعطي السلطان مفتاح القلعة التي أصبحت جاهزة وبفترة قياسية، نعم أكتمل البناء فقط بأربعة أشهر، فسر السلطان كثيراً الذي أخذ ينظر إلى القسطنطينية الآن.

فتح القسطنطينية

شكّل فتح القسطنطينية حلماً وشرفاً راود الكثير من الخلفاء والقادة المسلمين من عهد الخلفاء الأمويين إلى السلاطين العثمانيين مروراً بالخلفاء العباسيين والسلاجقة العظام، ورغم كل المحاولات لفتحها الّا أن أحدا لم ينجح بفتح هذه المدينة وضمّها إلى بلاد المسلمين ونيل شرف بشارة سيدنا محمد صلى اللـه عليه وسلم بهذا الفتح.

فلقد قال سيدنا محمد صلى اللـه عليه وسلم في الحديث الذي ورد في مسند الإمام احمد:

" لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش ".

وطيلة ثمانية قرون حاول المسلمون 11 مرة، لكنهم فشلوا في كل مرة نظراً لحصانه المدينة وارتفاع أسوارها، إلى أن استطاع السلطان محمد الفاتح بالنهاية عام 1453 بفتح المدينة، بعد أن استعد خير استعداد وتجهز هو وجيشه الذي ضرب أروع الأمثلة في الجهاد والصبر والشهادة والثبات.

إنتشر الخبر في كل إرجاء المعمورة وراحت الاحتفالات تعم القاهرة ودمشق وسائر البلاد الإسلامية بهذا النصر الذي وعد بهِ سيدنا محمد صلى اللـه عليه وسلم. وهناك الكثير من قصص البطولة التي أبداها الفاتح وجيشه في هذه الملحمة التي سنذكر بعضها في القصص التالية.

شجاعة الانكشارية في فتح القسطنطينية

أثناء حصار القسطنطينية أبدى الجيش العثماني شراسة وملحمة في الهجوم، أذهلت المدافعين والإمبراطور قسطنطين[1] نفسه. فلم يشاهدوا روحاً قتالية واندفاعاً في الهجوم كما شاهدوه من جيش السلطان محمد الفاتح الكبير والمدرّب والمجهز خير تجهيز. ننقل ما قاله نقولا باربادو في مذكراته وهو جراح بندقي[2] عاصر وشاهد الفتح العثماني للمدينة واصفاً الجيش بهذه العبارات خاصة فرق الانكشارية :

((كانوا يرون الترك[3] هارعين إلى السور بكل سرعة طالبين القتال، وبالأخص الانكشارية[4]... وعندما كان يُقتل أحدهم، كان الباقون يأتون بسرعة ويسحبونه بعيداً، غير أبهين بمدى قربهم من أسوار المدينة.

كان رجالنا يطلقون عليهم رصاص البنادق والسهام، مختارين في ذلك التركي الذي يحمل أبن جلدته الصريع أو الجريح، فيسقط كلاهما على الأرض ميتاً، وعندها يأتي غيرهم ليسحبوا جثث رفاقهم، دون أن يخشى أحدهم الموت، بل كانوا يفضلون الموت على عار ترك جثة مسلم قرب الأسوار)).

بهذه الكلمات وصف هذا ألبندقي الأحداث التي أذهلتهم من هذا الجيش الذي لم يأتي لمغنم أو مكسب بل جاء كما قال ليموت.

---

1 قسطنطين الحادي عشر باليولوج1404-1453, آخر إمبراطور بيزنطي, في عهده انتهت الإمبراطورية البيزنطية وفتحت اسطنبول, وقتل أثناء دفاعه عن المدينة.

2 نسبة إلى مدينة البندقية.

3 تعتبر كلمة الترك أو تركي مرادفة في الغرب لكلمة مسلم أو عثماني, فكانت كل الكتب والرسائل التي تتحدث عن المسلمين تقول عنهم أتراك.

4 صفوة الجيش العثماني وأكثرها تدريباً وقوة مخصصة فقط للقتال, تقرأ الكلمة على الوجه الصحيح يني جاري وتعني الجيش الجديد.

البطل اولوباتلي

عندما منّ الله على المسلمين بفتح مدينة القسطنطينية، كان أبطالها ذلك الجيش العظيم الذي مدحه سيدنا محمد عليه السلام، ومن القصص الكثيرة في استبسال هذا الجيش قصة البطل اولوباتلي حسن طوبال، أول من رفع راية الإسلام فوق أسوار القسطنطينية.

بعد الحصار الطويل والقتال العنيف واستبسال المدافعين، بايع حسن اولوباتلي ورفاقه الثلاثين على عبور الأسوار ورفع راية الدولة العثمانية فوق أسوار المدينة، وبالفعل أنطلق حسن باتجاه الأسوار متجنباً السهام، كان يحمل الراية بيديه ومعه سيفه وترسه. أستطاع حسن أن يصل أعلى السور قبل رفاقه، وأخذ يرفرف بالعلم بعد أن أنتزع الأعلام البيزنطية، انهالت الرماح عليه وأردته جريحاً، وحاول الروم نزع الراية منه إلّا انه دافع عنها حتى وصل رفاقه الاثنا عشر المتبقين من الثلاثين، وشاركوه بالدفاع عن الراية والذود عنها.

ألهب رؤية العلم المرفوع صدور المجاهدين، ودبّت الحماسة في الجيش العثماني وأندفع مثل السيل على الأسوار، واستطاعوا الوصول إلى الراية، هنالك وجدوا البطل اولوباتلي ورفاقه الثلاثة عشر سقطوا شهداء حول الراية والرماح تملأ أجسادهم.

كانت هذه الحادثة إحدى العمليات الفدائية التي سبقت الفتح، فليس بالسلطان وحده تحقق النصر وإنما بهذا الجيش الذي وصفه سيدنا محمد عليه السلام:

" ولنعم الجيش ذلك الجيش".

زوغنوش باشا

يعتبر زوغنوش باشا من الرجال الذين كان لهم دور رئيسي في فتح القسطنطينية، فبعد أن طال الحصار ولم تنجح محاولات الفتح المتتالية، عقدَ السلطان محمد الفاتح اجتماعاً مع كبار القادة والعلماء، وأخبرهم بأن الحصار قد طال والجند بدأت تهبط عزيمتهم، فطلب منهم المشورة والحل.

كان أول المتكلمين هو خليل باشا أحد أكبر الوزراء والمستشارين، وتكلم عن حصانة المدينة وصعوبة الفتح، وأنه يرى بعقد الصلح بشروط جيدة والانسحاب حقناً للدماء، وخوفا من إثارة الغرب الذي سوف يجتمع ضد الدولة العثمانية للثأر.

التفت السلطان إلى زوغنوش باشا وأمره بالتحدث، فوقف زوغنوش باشا على الفور مثل الأسد، وقال بنبرة الثقة والشجاعة:

((أيها السلطان لا تسمع كلام خليل باشا، فأنا لا أقبل بهذا الكلام، فنحن ما أتينا هنا إلّا للموت والشهادة، وكلام خليل باشا كله ضعف واستسلام لا يرضاه السلطان والشجعان، يا مولاي نحن نملك أقوى جيش في العالم، أبعد عدة أيام من الحصار والقتال نستسلم أمام كومه من الحجار؟.

وما هو الغرب الذي يخوفنا بهم خليل باشا، أنهم مجموعة من اللصوص والقراصنة ودول ضعيفة، ولو أرادوا نصرة بيزنطة لفعلوا ذلك من بداية الحصار، وأن حدث فعلا ما يخشاه خليل باشا وأجتمع جيش صليبي من الغرب ليثأر وينتقم للقسطنطينية، أوليس لنا جيش يدافع عن شرفنا وكرامتنا ودولتنا.

يا مولاي إنك سألتني عن رأيي وأنا أجيبك بكل أمانه وصدق، أن جيشنا قادر على فتح هذه الأسوار، لكن يجب أن نكون يداً واحدة وسيفاً واحداً وقلوباً مثل الصخر وهذا ما نحن عليه والله، سوف لن نمل ولن نبرح من هنا حتى يحقق الله نصره أو نموت دون ذلك... يا مولاي أنا لا أعرف غير هذا الكلام، ولا أقول كلاماً غيره)).

أشعلت هذه الكلمات صدور القادة وتبسّم السلطان الذي كان يرى ما يراه زوغنوش باشا، فأتم السلطان الحصار حتى تم نصر الله والفتح.

السلطان والدرويش

فُتحت الأسوار ودخل الجيش المدينة وكانت التعليمات واضحة وصارمة بعدم إيذاء أو نهب أي شيء، ظهر موكب السلطان ذي الواحد وعشرين عاماً وهو يدخل إلى المدينة من جهة طوب قابي ممتطياً جواده الأبيض وحوله الوزراء والعلماء والحرس. فنزل إلى الأرض ومرغ وجهه بالتراب شكراً وتواضعاً لله.

كان الآلاف من أهالي المدينة قد إلتجأوا إلى كنيسة آيا صوفيا[1] ينتظرون الفرصة الأخيرة للخلاص، فقد أوهمهم رجال الدين بأن الله سوف يُنزل ملائكة من السماء وتحرق المسلمين عند اقترابهم من الكنيسة.

وكانت هناك حشود أخرى من الناس اصطفت على جنبات الطريق لتشاهد هذا الفارس الشجاع، وبينما السلطان يسير باتجاه آيا صوفيا اندفع فجأة من بين هذه الجماهير درويش من دراويش الجيش العثماني، وتقدم وأمسك بعرف جواد السلطان وأوقفه وخاطبه قائلا:

((لا تنسى أيها السلطان... انه بفضل دعواتنا نحن فتحت هذه المدينة))

تبسّم السلطان ابتسامة خفيفة، ثم مد يده على سيفه وسلّه من غمده حتى نصفه، وقال:

((صدقت يا درويش.. لكن لا تنسى حق هذا السيف أيضاً)).

---

1 كاتدرائية بنيت عام 532 زمن جستنيان, تحولت إلى مسجد بعد أن اشتراها السلطان أثناء فتح المدينة, وظلت مسجد طيلة الحكم العثماني, وهي الآن متحف. ما زالت تشكل آيا صوفيا محل خلاف بين المسلمين واليونان الى اليوم.

آق شمس الدين

لا يمكن أن نتكلم عن فتح القسطنطينية وعـن السـلطان محمـد الفـاتح دون أن نعرج على أستاذه ومربية ومعلمة الشيخ آق شمس الدين، لِما له من دور كبـير وفعّـال في تنشئة وتربية السلطان محمد الفاتح. يعتـبر كـل المـؤرخين آق شـمس الـدين الفـاتح المعنوي للقسطنطينية وسبب ذلك أنه لما عُهِد إليه بتربية السـلطان وتعليمـه كـان يـربي فيه دوماً أنه هو الأمير المعني بقول سيدنا محمد صلى اللـه عليـه وسـلم الـذي سـوف يفتح القسطنطينية، وكان يأخذه في رحلات بشـكل دائـم إلى جـوار القسـطنطينية حتـى يشاهدوها من بعيد، ويقول له:

((أنظر... هذه مدينتك التي سـتفتحها، فأنـت المقصـود بحـديث سـيدنا محمـد عليه السلام)).

ثم يشير بيده إلى أسوارها ويقول:

((هنا يرقد الصـحابي الجليـل أبـو أيـوب الأنصـاري، استشـهد هنـا وهـو يحـاصر المدينة مع المسلمين)).

وكان دوما يدفع في نفسه الحماسة والشجاعة، لدرجـة أن السـلطان الفـاتح كـان يذهب سراً إلى أطراف القسطنطينية وينظر إليها ويقول كلماته الشهيرة:

((غداً .. غداً ... إمّا أن آخذ القسطنطينية، أو تأخذني))

((غداً .. إمّا أن يكون لي عرش في القسطنطينية أو قبر))

يقول السلطان الفاتح في شيخه آق شمس الدين:

((إن الشيوخ والعلماء يرتعشون عند رؤيتي إلّا شيخي آق شمس الدين، فأنا من يرتعش عند رؤيته، وأتلعثم عندما أتكلم معه)).

قبل يوم الفتح أستدعى السلطان الشيخ ليكون بجانبه، لكنه لم يحضر فقرر الذهاب بنفسه إليه فوجد الخيمة مغلقة، فأخذ ينظر من بين فتحاتها ليجد الشيخ ساجداً وهو يبكي ويدعو الله أن يمنّ على جند الإسلام بالفتح. فرجع السلطان سعيداً مستبشراً بدعاء الشيخ، وما هي إلّا ساعات ويدخل المسلمون المدينة. وبعد الفتح بأيام، قال السلطان أمام جمع من العلماء والوجهاء:

((إنكم تروني فرحاً سعيداً، إن فرحي ليس لفتح هذه المدينة فقط ونيل بشارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بل فرحي يتمثل بوجود شيخ عزيز بجانبي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين)).

السلطان والشيخ المربي

بعد يوم من فتح القسطنطينية، ذهب السلطان إلى خيمة شيخه ومربية آق شمس الدين ودخل عليه، فلم يقم الشيخ للسلطان بل ظلّ جالساً ولم يعره اهتماماً، فنزل السلطان الفاتح وقبّل يد شيخه وقال له:

((شيخي.. لقد جئتك لكي أخلو وأصلي معك)).

رفض الشيخ طلب السلطان وطلب منه الرجوع. فالحّ السلطان بالطلب على شيخه أق شمس الدين، لكنه لم يرض. فوقف السلطان وقد بدت عليه علامات الغضب والعصبية، وقال:

((لقد رجوتك كثيراً، وكل مرة ترفض. ولو دخل عليك أي رجل لوافقت سريعاً، أما أنا فلا تعيرني اهتمام)).

فقال له الشيخ:

((إن مكانك ليس هنا، فإن للصلاة والخلوة لذة لو ذقتها لهانت في عينيك أمور دولتك، فتختل الأمور وتضعف، وأعلم أن الغرض من الخلوة هو تحقيق العدالة والفوز برحمه الله، ولو أردتها فعليك بشؤون دولتك)).

فخرج السلطان وأرسل له كيساً من النقود فلم يقبلها. وعندما سُئل الشيخ عن معاملته القاسية للسلطان قال:

((لقد نال السلطان بشارة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وأردت أن أدفع الزهو والتكبر عنه قبل أن يشعر بهما)).

القاضي يأمر بقطع يد السلطان

شكّلت كنيسة آيا صوفيا مصدر فخر لكل المسيحيين ببنائها الشاهق وقبّتها الضخمة، ورغم تحويلها إلى مسجد على يد السلطان محمد الفاتح بعد أن أشتراها وأوقف عليها الكثير من الأوقاف ظلت تشكل مصدر فخر للعمارة البيزنطية، حتى أنه كان يُقال لا يوجد في المسلمين من يستطيع أن يبني مثلها. لذلك أراد السلطان محمد الفاتح أن يبني مسجداً كبير يفوق آيا صوفيا حجماً ويليق بمكانة الفاتح ويُظهر مكانة الدولة لرعاياها.

وبالفعل وُضعت المخططات التي احتوت مسجداً، وكليات، ومطابخ ومستشفى. كانت أشبه بمدينة داخل مدينة. أوكِلت مهمة البناء للمهندس العثماني عتيق باشا، وبدأت عمليه الإعمار وفق المخططات، كان من ضمن المعماريين رجل رومي رأى أن الأعمدة الرخامية التي جلبها الفاتح طويلة كثيرا وقد تؤثر على البناء، فأمر بتقصيرها، ونتيجة لذلك قلّ ارتفاع القبة الرئيسية.

لم يتمالك السلطان أعصابه عندما علم بذلك، فلقد فسُد الهدف من البناء لأنه أراد لقبة المسجد أن تكون أطول من قبة ايا صوفيا، فأمر بقطع يد المعماري الرومي على الفور عقوبة له على هذا الخطأ العظيم. كان يعلم الرومي بأن هناك قضاء يأخذ القصاص ويحكم بالعدل، فقدّم شكوى بحق السلطان عند القاضي الذي أمر بإحضار السلطان للبت بالقضية.

في اليوم التالي حضر الرجل في الموعد الذي حددته المحكمة، وذُهـل عنـدما وجـد السلطان ينتظر كأي متّهم.

أمر القاضي الرجل الرومي بأن يقول شكواه أمـام كـل الحضـور، فأخـذ يشرح مـا حدث له وان يده الآن مقطوعة دون سبب يبرر ذلك، وذنبه الوحيد أنه أجتهد لما ظنّـه خير للبناء.

نظر القاضي للسلطان وقال له:

((هل ما أدّعاه الرجل صحيح أيها السلطان ؟))

السلطان: ((نعم أيها القاضي، كلامه صحيح.))

نظر القاضي جهة الرجل الرومي وقال له:

((هل ما زلت على شكواك وتريد حقك))

فأجاب الرومي : ((أجل يا سيدي))

فقال القاضي:

((بعد النظر في هذا المظلمة وأخذ الأقوال، جـاء الحـق الآن ليقـول كلمتـه، لقـد حكمت عليك أيها السلطان بأن تقطع يدك قصاصاً)).

صُعق كل الحضور من هذا الحكم، وتعالـت الأصـوات في المحكمـة بـين الحضـور مستغربة من حكم القاضي. أما الفاتح الذي تخافـه كـل دول العـالم وترتعـد منـه سـائر أوروبا يسلم أمره لـلـه ولا يتكلم بأي حرف.

كان أكثر المذهولين هو ذلك الرومي الذي لم يفهم ما يحدث، فكل ما كان يطلبـه هو تقديم شكوى للقاضي لأخذ بعض التعويضات، ولم يتوقع حضور السلطان أصلاً، فلـم يتمالك نفسه ووقف وقال:

((أرجوك أيها القاضي، إن كل ما أردته بعض التعويضات فقط، أنا لا أريد أن تُقطع يد السلطان، فأنا لم أتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد)).

فحكم القاضي للرومي بعد أن تنازل عن القصاص بعشرة دنانير تدفع له من جيب السلطان كل يوم حتى وفاته. أمّا السلطان الذي نجا من القصاص فأمر بإعطائه عشرون دينارا عن كل يوم تعبيراً عن فرحه الشديد وشكره لله على النجاة من هذا الحكم.

الفاتح والعجوز

كان من عادة السلطان محمد الفاتح أن يخرج متنكراً مع بعض أصحابه إلى المدن والقرى المجاورة لاسطنبول مرتديا لباس فلاح بسيط.

وأحيانا تطول رحلته لأيام، فيرى الناس ويتكلم معهم ويسألهم عن حال المسئولين معهم، وفي إحدى هذه المرات وهو يتنقل بين القرى تعب السلطان ورفاقه وأصابهم العطش، وأثناء مسيرهم شاهدوا كوخاً صغيراً، فمرّوا عليه وطرقوا الباب.

خرجت منه عجوز فطلب منها السلطان بعض الماء البارد، كانت هيئتهم تدل على أنهم متعبون جداً، فطلبت منهم الجلوس ليرتاحوا أولاً، ثم دخلت وأحضرت لهم أكواب من الحليب البارد وقدّمته لهم. كان الحليب مليئاً بالقش وكلما شربوا قليلاً توقفوا وأخرجوا من أفواههم القش. بعد أن شربوا تبسّم السلطان وقال للعجوز:

((يا خالة.. شكرا على الحليب فلقد كان طيباً وبارداً، لكنه كان ملئاً بالقش))

تبسّمت العجوز وقالت:

((يا بني.. إن الحليب كان بارداً، ولاحظت أنكم عطشى لذلك قمت بخلطة بالقش لكي لا تشربوه دفعة واحدة فتمرضوا)).

شكر السلطان العجوز على حرصها بهم وأمر لها بأعطية، وقال لأصحابه:

((إن احترام وحب الناس لبعضهم هو ما يجعل الشعب متماسك والدولة قوية، كشعور الحب والخوف الذي أبدته هذه العجوز تجاهنا)).

أهل الصرب يختارون حكم العثمانيين

بعد أن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية، تجهز قاصداً لفتح بلاد الصرب التي كانت تحت حكم ورحمه المجريين. فتجهز ملك المجر هونياد لصد الجيوش العثمانية وردّها عن بلاده، وأستطاع بعد قتال بسيط صد الجيوش العثمانية ومنع تقدمها. في هذه اللحظات يُخبر القادة السلطان بأن وفداً من الصرب جاء لمقابلته، وبعد الامتثال بين يدي السلطان وإلقاء التحية والتبجيل، يقف رئيس الوفد ويقول:

((أيها السلطان العظيم.. إننا عانينا من حكم المجريين وتسلطهم علينا لسنوات طويلة، إنهم يذعنون إلى كلام البابا في روما لأنهم كاثوليك ونحن أرثوذكس، ونلاقي الظلم دوما من الكنيسة الكاثوليكية رغم إننا إخوانهم في الدين، ودوما يهينون كنيستنا وشعبنا..

أيها السلطان نحن وبكل صراحة لا نريد أن يُدافعوا عنّا ولا نريد منهم أن يحمونا، فنحن نرغب بحكمكم لِما شاهدناه من معاملتكم السمحة مع رعاياكم المسيحيين، لقد جئنا إليك بأمر مليكنا، ونريد أن نعرف قبل كل شيء لو حكمتمونا كيف ستكون معاملتكم لنا ولديننا...؟))

وقف السلطان محمد الفاتح وقال:

((إن ديننا يأمرنا بان لا نتعرض لأهل الكتاب، ولا كنائسهم، ولا نجبرهم على الدخول في الإسلام، وأنا أتعهد ببناء كنيسة بجانب كل مسجد وسأطلق حريتكم في العبادة، فهذا حقكم الذي كفله ديننا)).

أستبشر الوفد وخرج بعد أن قال للسلطان ((نحن ننتظركم))، وبالفعل أختار ملك الصرب الحكم العثماني وتحولت صربيا إلى ولاية من الولايات العثمانية.

لا مكان لك ايها السلطان

أمر السلطان محمد الفاتح ببناء مجمّعاً ضخماً يحتوي على مسجد وكليات، ومطاعم عامة، ومساكن للطلبة، ومدارس. وبعد الانتهاء من البناء قام السلطان بزيارة المجمع فسُر به كثيراً، وأخذ يتجول بين الغرف والمساكن المخصصة للطلاب، فأستدعى المشرف على المجمع وأخبره بأنه يريد تخصيص غرفة له لكي يلتقي بالعلماء والطلاب عندما يرغب السلطان بزيارة المجمع. فقال المشرف:

((هذا مستحيل أيها السلطان، أن الغرف مخصصة للطلاب فقط وليس لشخصكم أو للمقابلات، فهذا المجمع مخصص فقط للدراسة)).

فقال السلطان : ((إذا اعتبروني أحد الطلاب)).

فقال المشرف:

((على الرحب والسعة أيها السلطان، لكن عليك في البداية أن تجتاز الامتحانات والاختبارات التي تؤهلك لكي تصبح طالباً هنا، كما عليك الالتزام بالدراسة والدوام)).

ولأن السلطان لا يستطيع التفرغ بسبب مشاغل الحكم والحروب اكتفى فقط بالابتسام وغادر دون أن تُلبى رغبته، وخرج مسروراً لأنه يعلم أن الشروط القاسية والصارمة في التدريس هي التي سوف تخرّج للأمة العلماء.

إلى طرابزون سيراً على الأقدام

كانت طرابزون[1] آخر دولة مسيحية في الشرق، وكانت دوماً تشكل مصدر إزعاج للسلطان محمد الفاتح لموقعها المهم وبسبب اتصالاتها مع الدول الأوروبية. لذلك قرر السلطان أن يفتح المدينة، فأمر الجيش للتجهز بحملة كبيرة ولكن هذه المرة باتجاه الشرق. تقع هذه المدينة على البحر الأسود شرقي البلاد، وتبعد آلاف الكيلومترات والطريق إليها صعبة جداً ووعرة للغاية، فكانت هذه الحملة مختلفة قليلاً عن باقي حملات السلطان.

أنطلق الجيش بحماسة وأخذ يقطع المسافات والجبال والأودية حتى وصلوا منطقة جبلية وعرة جداً كان لا بد للجيش من النزول والمشي، فنزل السلطان محمد الفاتح وأخذ يسير كباقي أفراد الجيش، استغربت والدة الأمير حسن أوزون أحد أمراء الأناضول وأسمها سارة خاتون من تصرف الفاتح. إذ كيف لسلطان في عظمته يترك عرشه ونعيم العيش ويقطع مسافات ويمشي على قدميه مع الجيش لشهور طويلة من أجل مدينة صغيرة. لم تتمالك نفسها فسألته:

((يا سلطاننا.. لِم تُتعب نفسك كل هذا التعب، وتتكبد هذا العناء، هل تستحق مدينة صغيرة كل هذا التعب والمسير!؟)).

فأجابها الفاتح:

((يا أماه... إن الله وضع في يدي هذا السيف لكي أجاهد به في سبيل الله، فان قصّرت في حقه وجلست فلن أستحقه، وماذا أقول لله تعالي يوم القيامة وقد ولّاني أمركم وأمر الجهاد..؟)).

---

1 تقع طربزون على البحر الأسود في الشمال الشرقي من تركيا اليوم, وكانت إحدى الممالك المسيحية البيزنطية.

الفاتح رمز للأمة

تولى الحكـم وعمـره 19 عـام وتـوفي وعمـره 49 بكـل حـق وبعيـداً عـن المبالغـات والتبجيل، لا يُعتبر محمد الفاتح من رموز العثمانيين الأتراك فقط، بل من أكبر رموز الإسلام والأمة المحمدية كصلاح الدين الأيوبي. وكيف لا وهو من قال عنه سيدنا محمد صـلى اللـه عليه وسلم "نعم الامير " ، سار بالناس بالعـدل وبجيشـه بالجهـاد، والحـديث يطـول كثـيراً فسيرته العطرة تحتاج إلى كتب، لكن تعالوا نتجول ونختزل سيرة حياته بالأرقام.

تولى السلطان الحكم وعمره 19 عام، واستمر بـالحكم 30 عـام، قـاد خـلال فـترة حكمه 25 حملة عسكرية لم يخسر بأي منها، فتح خلالها 17 عشر دولة وأكـثر مـن 200 مدينة. بني 192 مسجد وعشرات المستشفيات، له ديوان شعري واحـد، يـتكلم 5 لغـات من ضمنها العربية، تعـرض لــ 14 محاولـة اغتيـال لكنـه سـقط مسـموماً وهـو يسـتعد للحملة 26 على ايطاليا[1]، فقتلت الانكشارية طبيبه الذي دس السم في الـدواء وقـد تبـين أن البندقية وراء تلك المحاولة[2]. توفي وعمره 49 عام.

الفدائي الشهيد براق ريس

إنتقلت المعارك في أوائل القرن السادس عشر بين العثمانيـين وأوروبـا إلى البحـار، وحدثت مئات المعـارك البحريـة التـي للأسـف لا نعـرف عنهـا شـيئاً، سـنذكر ألان قصـة حدثت في إحدى تلك المعارك وهي معركة سابينزا.

1 كان من عادة السلطان محمد الفاتح عدم إظهار وجهته العسكرية, لذلك ساد الغموض على هذه الحملـة الأخيرة التي استُشهد فيها السلطان, لأن أحدا لم يعرف إلى أين كان ينوي السلطان الـذهاب. تشـير أقـوى الآراء إلى إيطاليا لإكمال الفتح الـذي بـدأه قبـل عـام, إلّا أن هنـاك بعـض التخمينـات تـرجح نيتـه حـرب المماليك وفتح مصر.

2 يذكر بعض المؤرخين أن السلطان مات ميتة طبيعية, وقصة موته بالسم ملفّقة من أجل إثارة الـرأي العـام وأخذ موافقة على فتح القبر وتحليل رفاة السلطان, والهدف هو الوصول إلى الآثار البيزنطية تحـت القـبر, وتحويل المنطقة إلى ورشة حفريات وأثار حسب إدعاء هؤلاء المؤرخين.

بينما كان الصراع على أشده والدولة العثمانية تحارب في كل الجبهات، تَصدر تعليمات من السلطان بايزيد الثاني لقائد القوات البحرية كمال ريس إلى التوجه سريعاً لملاقاة الأسطول البحري ألبندقي القوي العازم على مهاجمة الدولة، وبالفعل يصل القائد كمال ريس ومعه قائد الميمنة براق ريس بالقرب من جزيرة سابينزا، ويعترض هناك للأسطول ألبندقي ويباشر كمال ريس الهجوم بشراسة، تحدث معركة من أقوى المعارك الحربية العالمية، ومع التفوق ألبندقي بالعدد إلا أن العثمانيين يمتلكون مدافع متطورة وكثيرة. التحمت السفن وبعد قتال عنيف وطويل استطاعت السفن البندقية بعددها الضخم من التركيز على الميمنة العثمانية حيث يضرب البطل براق أروع أمثلة الشجاعة والصمود، ومع ازدياد التركيز والإمدادات نجح البنادقة بمحاصرة وخنق براق وقواته الشجاعة، لم يبق الآن خيار لبراق سوى الاستسلام خاصة بعد أن سُحقت الميمنة وحوصرت سفنه بسفن العدو، لكن ليس بعد، فبطلنا لا يعرف الاستسلام والهزيمة، ويعرف جيداً أهمية هذه المعركة لبلاده، فيستدعي طاقم سفينته ويحثهم على القتال وطلب الشهادة ويخبرهم أنه عازم على تفجير سفينته عندما يحيطها أكبر عدد ممكن من سفن العدو. يبتسم الأبطال ويعلنون موافقتهم على الموت بفدائية.

وبالفعل بعد أن إحاطتهم السفن البندقية، يقرأ براق الفاتحة وتعلوا أصوات التكبير ويأمرهم بتفجير مخازن البارود الكثيرة في السفينة، فما هي إلا لحظات ويهُز انفجار ضخم المنطقة وتنفجر عشرات من سفن العدو.

استُشهد البطل براق ومعه الكثير من أبطال البحرية العثمانية، ويُقتل خلق كثير من خيرة البحرية الأوروبية، في ظل هذه الفوضى التي دبّت بالأسطول ألبندقي أستطاع كمال ريس الانسحاب وإعادة ترتيب القوات البحرية العثمانية، وبدأت تدك سفن العدو بوابل من نيران المدافع.

أخذت سفن العدو تفر بعشوائية وبحالة يـرثى لهـا، انـتصر العثمانيـون بالمعركـة وهُزم الأعداء بفضل الـلـه تعالى وفدائية البطل براق الذي ضحّى بنفسه من أجـل أمتـه وجيشه وتكريماً له سميّت تلك الجزيرة باسمه.

السلطان الذي لم تفته صلاة

يُعتبر السلطان بايزيد[1] الثاني مـن أكـثر السـلاطين ورعـاً وتـديناً حتـى أن الشـعب سمّاه بالسلطان الصوفي أو الولي، وحدث مرّه أن السلطان أمر ببناء مسـجد كبـير[2]، وبعـد الانتهاء من بناءه حضر معظم الناس ليوم الافتتاح الذي ستقام به أول صلاة.

أحتشـد النـاس وحضر العلـماء والشـيوخ والسـلطان أيضـاً، وبعـد أن رُفـع الأذان وأقيمت الصلاة، تقدم إمام المسجد وقال:

((أنا لن أتقدم للصلاة بكم ... لأن الذي سيتقدم وينال شرف ألإمامة هـو مـن لم تفته صلاه فرض طيلة حياته..)).

فتراجع الإمام إلى الصفوف وأخذ المصـلون والشـيوخ ينتظـرون أن يتقـدم أحـد لم تفته صلاه طيلة حياته، وبعد قليل يتقدم شخص ويقول بسوط خاشع ورقيق:

((إستقيموا لصلاة.. إعتدلوا))

كان هذا الشخص هو السلطان بايزيد الثاني رحمه الـلـه.

هذه الحادثة التي حدثت يوم افتتاح مسجد بايزيد الكبير في اسطنبول تعـبّر عـن مدى تدين هذا السلطان الذي يستحق فعلاً كلمة السلطان الولي.

1 بايزيد خان الثاني بن محمد الفاتح 1481-1512، ثامن السلاطين العثمانيين, لقب بالصوفي لميلـه إلى السلم. كان شاعراً ومن أشهر خطاطي عصره.

2 هو مسجد بايزيد الكبير, موجود في حي بايزيـد الـذي سـمي نسـبة لهـذا المسـجد, يقـع بجانـب السـوق المسقوف من الجهة الغربية.

وبعد أن صلى السلطان بالناس تقدم الشيخ بابا يوسف وخطب بالناس خطبة قويه أبكت كل من في المسجد بمن فيهم السلطان، كان جواً مليئا بالإيمان أثّر حتى على النصارى الذين جاؤوا لمشاهدة الافتتاح ولم يتمالك ثلاثة منهم أنفسهم وأخذوا يبكون معلنين إسلامهم، فانهالت عليهم بعد الصلاة المصافحة والعِناق والهدايا والأعطيات من المسلمين داخل المسجد.

حاجي خليفة

في عهد السلطان بايزيد الثاني حدث زلزال شديد جداً في استانبول، مما أدّى إلى خراب كبير في البيوت والممتلكات، مما أدى إلى استشهاد الكثير من الناس. أخذت الدولة والشعب بإغاثة المتضررين، لكن وبوجود جثث تحت الركام لعده أيام تفشّى مرض الطاعون في المدينة، وأخذ الطاعون كل مأخذ من الناس. وانتشر الذعر بينهم، فأمر السلطان بايزيد من العلماء والطلبة، والأيتام، والأرامل بالدعاء لله لكي يخلصنا من هذه البلية العظيمة. ومن علماء ذلك الزمان العالم الشهير الزاهد جلبي خليفة، كان هذا العالِم كثير الزهد والورع، ومن أكثر الشخصيات المحبوبة في إسطنبول، وكانت تجمعه علاقة صداقة بالسلطان بايزيد.

قرر هذا العالِم بعد أن رأى انتشار الوباء تلبية نداء السلطان والذهاب إلى المدينة المنورة من أجل الصلاة والدعاء في المسجد النبوي لرفع البلاء عن المسلمين.

وبالفعل أنطلق العالِم ومعه بعض طلابه، وفي طريقهم جاءهم رسول يحمل رسالة من السلطان جاء فيها:

((إن الله وبحمده رفع البلاء عن العباد، وعمّت الفرحة أرض المسلمين، ولم يعد هناك سبب للذهاب، فأن شئت فارجع)).

لكن كانت نفس خليفة تتوق لزيارة سيدنا محمد عليه السلام والمسجد النبوي، فكتب للسلطان أنه يحمد الله ويشكره على نعمته بتخليص العباد والدولة من

الطاعون، وأنه قاصد للحج وسوف يدعو اللـه هناك للدولـة العليـة ويحفظهـا، وسـوف يدعو للسلطان بالرشاد والسداد. وبالفعل أكمل طريقه التي لم يكتب لها النجـاح، فلقـد توفي رحمه اللـه في تبوك قبيل وصوله للمدينة ودُفن هناك عام 1493.

لا تفتح البلاد بجيش يأكل الحرام

قبل سفره إلى الشرق لقتال الصفويين زار السلطان سـليم[1] الأول مسـجد الصـحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري[2] في اسطنبول، فصلى ركعتـين وأخـذ يـدعو ربـه راجيـاً الـنصر وجمع شمل ألأمة. وانطلق بعدها إلى اسـكودار حيـث ينتظـره الجـيش هنـاك لقيادتـه. وبالفعل انطلق الجيش في مسـيره وأخـذ يمـر بـالمزارع والكـروم والبسـاتين، وبعـد قطـع مسافة أمر السلطان الجيش بالتوقف وأستدعى أغا الانكشارية، وقال له:

((يا أغا... أريد منكم أن تفتّشوا كل الجيش، أريد أن أعرف هل أخذ أحـد مـنهم شيئاً من هذه المزارع)).

بدأت عمليه التفتيش بناءاً على طلب السـلطان، وبعـد عـده سـاعات عـاد الأغـا وقال:

((أيها السلطان لقد فتشت كل الجـيش، ولم نعـثر عـلى أي شيء أُخـذ مـن هـذه الكروم والبساتين، فهل سمعتم شيئاً لا قدر اللـه عن سرقة أو ما شابه)).

تبسّم السلطان كثيراً ورفع يديه إلى السماء واخذ يدعو:

---

1 سليم بن بايزيد 1512-1520, هو تاسع السلاطين العثمانيين ومن أشد السـلاطين قـوة وجـبروت وأشـدهم زهداً, يعتبر السلطان أشهر من كتب الشعر بالفارسية في عصره . وهو أول خليفة مـن آل عـثمان بعـد أن تنازل له آخر خليفة عباسي عنها.

2 المسجد الذي بناه السلطان محمد الفاتح عـلى ضريـح الصـحابي الجليـل ابـو أيـوب الأنصـاري بعـد الفـتح مباشرة, ومكانه في إسطنبول بجانب الأسوار القديمة.

((أحمـدك يـا رب .. أن وهبتنـي جيشـاً يبتغـي مرضـاتك ولا يأكـل الحـرام، ولا يغتصب أموال الناس)).

ثم التفت إلى أغا الانكشارية وقال:

((يا أغـا.. لـو أننـي وجـدت جنـديا واحـدا قـام بقطـف ثمـرة واحـدة دون رضـا صاحبها، لما ترددت بالعودة والعـدول عـن هـذه الحملـة، لأن جيشـاً يأكـل الحـرام مـن المستحيل أن يفتح البلاد)).

وبالفعل أكمل الجيش المسير وتحقق النصر والظفر عـلى يـد هـذا السـلطان، لأن جيشهُ لم يأكل الحرام، فكان جديراً بالتمكين والنصر.

لا حاجة لرسول

قام إسماعيل[1] الصفوي شاه إيران الصفوية بقتل المسلمين السنة في العراق وتبريز وأذربيجان، وأخذ ينشر أتباعه في كـل مكـان لـنشر مذهبـه الضـال ولا يخفـي طمعـه في احتلال الشام والأماكن المقدسة، الأمر الذي جعل السلطان سليم بتنبه مبكراً لخطر هـذا الرجل فجمع العلماء ورجال الحرب وخطب بهم خطبة بليغة، بيّن لهم المعاملـة السـيئة لأهل السنة والجماعة من قِبَل إسماعيل، ويجب الذب عن أعـراض إخـوانهم وحمايـتهم ونصرهم، ويرى أن تعلن الدولة الحرب المقدسة ضد الدولة الصفوية.

كان ما أراد فجهز الجيش وعقد المعاهـدات والهـدن مـع الـدول المجـاورة وكـان ممن بعث إليهم هو سلطان المماليك الغوري في مصر يشرح له أسباب حملتـه ويطلـب الدعاء من الإخوة المصريين، وبعد الانطلاق وبدء المعركة تأتي الطعنة من الخلف، فعـلاء

1 اسماعيل بن حيدر الصفوي1501-1524, وهو مؤسس الدولة الصفوية في ايران. قبلـه كانـت إيـران تـدين بمذهب السنة ولم يكون فيها سـوى أربـع مـدن شـيعية هـي: آوه، قاشـان سـبزوان، قـم وعقـب تتـويج إسماعيل الصفوي ملكا على إيران أعلن المذهب الشيعي مذهبا رسميا للدولة عن طريق القوة. فارتكب الكثير من الأعمال الإجرامية والقتل في سبيل ذلك.

الدين أمير سلالة ذو القدر التركمانية التابع للمماليك في مصر يعلن تمرده ويعيث بالأرض فساداً ويقطع خطوط التموين، لكن ولله الحمد أستطاع السلطان سحق القوات الصفوية ودخول عاصمتهم تبريز، فكتب عند رجوعه إلى الغوري بما فعله علاء الدين التابع له من خيانة. فكتب الغوري للسلطان سليم:

((إن علاء الدين عاصٍ، فإن ظفرت به فأقتله)).

فقام السلطان سليم بعد أن تمكن من الخائن علاء الدين بقتله على خيانته لأمته، وعدم احترامه للمواثيق والعهود. فأرسل الغوري برسول إلى السلطان سليم، دخل هذا الرسول على السلطان سليم وبعد الترحيب قال:

((إن سلطاننا الغوري غاضبُ من فعلتكم، لقتل علاء الدين أشد الغضب، وهذه رسالة إليكم)).

قرأ السلطان الرسالة وكانت قاسية ومليئة بعبارات الشجب والاستنكار، فضم الرسالة بيده بشده مستغرباً من موقف الغوري المتقلب، وأدرك السلطان أن المعلومات التي كانت تصله بوجود علاقات قوية بين الصفويين والمماليك صحيحة.

فقال الرسول للسلطان سليم:

((يا مولاي أنا أنتظر الرد منكم على هذه الرسالة لأحملها بنفسي، أو أرجو منكم أن تعلمونني بموعد إرسال رسولكم)).

فوقف السلطان وقال كلمات غيّرت مجرى التاريخ:

((لا حاجة لرسول، أنا سآتي بنفسي)).

وكان ذلك بعد عام، حيث قدِم السلطان سليم بجيشه وضمّ الشام ومصر وأنهى حكم المماليك[1]، ووحّد الأمة.

رؤيا الصالحين في فتح مصر

بعد أن إنتصر السلطان سليم على الغوري في موقعة مرج دابق، دخل الشام من غير قتال وخرجت الناس تستقبله بفرحة كبيرة، فأقام فيها مدّة وأخذ يراسل المماليك من أجل الصلح، إلّا أن المماليك أصرّوا على الحرب وقتلوا الرسل. فسار السلطان سليم بجيشة إلى مصر لقتالهم، وتحقق له النصر وفتح مصر بفضل الله. لكن تأخرت أخبار النصر على أهل الشام، فلقد مضيت شهور ولم تأتي أخبار، فأخذ من بقي من أعوان المماليك بنشر الشائعات بأن المماليك الجراكسة إنتصروا على سليم وبددوا جيشه وقتلوه، فاضطربت الشام وأخذ يظهر للعيان أعوان المماليك بسيوفهم. وفي هذه اللحظات العصيبة أمر العلماء الأهالي بالدعاء سراً وجهراً للسطان سليم، والصبر على المصيبة. ففُتحت المساجد للصلاة، وأخذ أهالي دمشق بالدعاء حتى في أعمالهم. وفي يوم الجمعة 14 محرم 923 خرج رجل صالح من علماء الشام يخطب في أحد مساجد حي الصالحية بدمشق، وبعد أن صعد المنبر وحمد الله قال:

((يا أهل دمشق البشرى... البشرى، لقد حلمت الليلة الفائتة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقلت له بالمنام: يا رسول الله، الناس في أمر مريج وإختلاف. فقال لي: إن إبن عثمان ملك مصر والقاهرة. وأمرني بأن أشهر الخبر على رووس الإشهاد وأنقله لكلم في خطبتي)).

فأخذ بعض أعوان المماليك بإثارة الشغب، فقال الخطيب:

1 كانت هذه الحملة العثمانية على الشام عام 1916, حيث انتصر العثمانيين في موقعة مرج دابق, وتلتها انتصار سليم في موقعة الريدانية. أنهت هذه الحملة دولة المماليك نهائياً وضم مصر والشام إلى الدولة العثمانية.

((والـلـه لو سللتم السيوف على رأسي، وجـاء مـن خلفكـم الجراكسـة يطلبـون نفسي، ما قلت غير ذلك، فهذا أمر رسول الـلـه)).

فانتشرت رؤية الشيخ وأخباره في كل دمشـق واسـتبشرت النـاس وحمـدوا الـلـه على النصر. وفي يوم الاثنين خرج شيخ صالح، وأخذ يجمع الناس، ويقول:

((البشرى البشرى، لقد حلمت بسيدنا محمد صلى الـلـه عليه وسلم، فسألته: يـا رسول الـلـه هل ما قاله الخطيب صحيحا؟ فقال: نعم، وعليه المعوّل)).

فأستبشر الناس وعمت الأفراح، وما هي إلّا أيام حتى وصلت أخبار نصر السلطان سليم وفتح مصر.

الثوب المتسخ

بعد أن فتح العثمانيون الشام ومصر، وتوحدّت الأمة تحت راية واحـدة عـلى يـد السلطان سليم الأول، عاد الجيش المنتصر إلى اسطنبول، وكان ممن يرافق السلطان سليم الأول الخليفة العباسي المتوكل[1] بعد أن تنازل له بالخلافة بالقاهرة، والعـالِم الجليـل ابـن كمال[2]، وكان السلطان سليم من أكثر السلاطين شـدة وزهـد، وتـديناً، لـذلك كـان يخافـه الكل. وأثناء العودة حـدثت أن هطلـت أمطـار غزيـرة، فعسـكر الجـيش إلى أن توقـف هطـول المطـر، أعطـى السـلطان الأمـر للجـيش بالمسـير وكـان يسـير بجانـب السـلطان ثلـة مـن الـوزراء والعلـماء وخـلال مـرورهم بمنطقـة طينيـة، أخـذ حصـان العـالِم ابـن كـمال يضرب برجليـه عـلى الأرض، فتنـاثر الطـين إلى كـل مكـان، فلـوث الطـين كامـل

1 محمد بن يعقوب بن عبد العزيز الـذي يلقـب المتوكـل عـلى الـلـه 1507-1517. آخـر خليفـة عبـاسي في القاهرة تنازل عن الخلافة لصالح السلطان سليم الأول العثماني في القاهرة ويقال بإسطنبول, تـذكر بعـض الروايات أنه تنازل بوصية بعد وفاته عام1534.

2 احمد بن سليمان بن كمال باشا 1468-1536, من العلماء بالحـديث ورجالـه, مـؤرخ وقـاضي شـهير, تـولى منصب شيخ الإسلام في عهد السلطان سليمان القانوني.

رداء السلطان سليم، كانت لحظات حرجة، فلم يعرف العالم ابن كمال ماذا يصنع، فالكُل يعرف سرعة غضب السلطان وشدته إلّا أن السلطان خلع الرداء وقال: ((إن الرداء الملوث بالطين من تحت أقدام العلماء غالي عندنا، خذوا هذا الثوب واحتفظوا به مثل غطا كفني)).

ويقال إن السلطان لما توفي كان هذا الثوب يغطي الكفن كما أوصاهم.

السيف والثوب

كان السلطان سليم الأول من أكثر السلاطين شدة وزهداً وقسوة على الكفار، ومما أُثر عنه أنه كان لا يأكل إلّا بملعقة خشبية، ويأمر بإعداد طبق واحد فقط من الطعام. وكان من عادته أيضا أنه لا يلبس الثوب إلّا مرة واحدة بمعنى أنه لا يلبس ثوباً جديداً إلّا بعد أن يهترىء الأول، وكانت تشكل هذه الميزة في السلطان قلق الوزراء الذين كانوا يبتعدوا عن الترف باللباس خوفاً منه. حدث مرة أن دخل بعض الوزراء على السلطان وقالوا له، أن هناك سفير سوف يحضر بالغد للمثول أمامه، وقالوا أيضاً:

((يا سلطاننا العظيم.. إن هذا السفير والكفار لا يعلمون أنكم تزهدون من الدنيا، ويقيّمون الأمور بما يشاهدوا، وثوبكم متهرئ بعض الشيء، وأخاف أن يتكلم الكفار عن سلطاننا بما نكره، لذلك لو سمحت لي أن أطلب منك أن تلبسوا ثوباً جديداً فيه عزة وجبروت، يخلع قلب هذا السفير)).

وافق السلطان على رأي الوزير وأشار عليهم بأن يلبسوا أيضاً هم أثواب جديدة.

في اليوم التالي وبينما الجميع والسفير في غرفة العرش ينتظرون دخول السلطان، إذ يُفتح الباب ويصيح مرافقي السلطان على الجميع بالوقوف ترحيباً بالسلطان. دخل السلطان لابساً ثوبه القديم وبيده سيفه. اضطرب الوزراء من هيئه

السلطان، أمّا السفير فأخذ يتلعثم أثناء كلامه مع السلطان، وبعد مغادرة السفير وانتهاء مراسم الاستقبال قال السلطان للوزراء:

((اذهبوا الآن وأسالوا السفير كيف وجد لباسنا)).

انطلق الوزراء وسألوا السفير بما أخبرهم السلطان، فقال:

((أنا لم أرى لباس السلطان، ولم أعرف حتى شكل ردائه.!. أنا كل ما شاهدته هو السيف البتّار الذي كان بين يديه.)).

وبعد أن رجع الوزراء وأخبروا السلطان بما قاله السفير، قال لهم:

((عندما يكون سيفنا بتّاراً وبيدنا، لا يشاهد الكفار غيره، وإن وضعنا السيف جنباً واهتممنا بلباسنا، عندها سيرفع الكفار عيونهم إلينا ويدققوا بأقل التفاصيل)).

قصر على سيركجي

كان السلطان سليم الأول كثير الجهاد وقليل الإقامة بإسطنبول، وحدث مرّة أثناء وجوده باسطنبول أن أمرَ مسؤول الخزانة أن يبني له بيتاً صغيراً تحت قصر طوب قابي في منطقة سيركجي[1] على شاطئ القرن الذهبي من مخصصات السلطان المصروفة من خزينة الدولة، فذهب هذا الرجل وبنى قصراً جميلاً وفاخراً معتقداً أنة سوف يلاقي إعجاب السلطان.

عندما دخل السلطان بيته الجديد برفقة مسؤول الخزانة أخذته الدهشة والغضب من البذخ الموجود بالقصر في نظره، فنظر إلى مسؤول الخزانة وعيونه تبرق من الغضب وقال:

1 تقع على بداية خليج القرن الذهبي في اسطنبول القديمة, تحت قصر طوب قابي مكان إقامة السلاطين العثمانيين, وفي المنطقة تقع محطة قطار ساركجي الشهيرة.

((أنا أمرتك أن تبني لي بيتاً أستظل به، ولم أمرك بكل هذا البذخ والإنفاق)).

فقال المسوؤل على الفور ليخلص نفسه من هذه الورطة:

((يا سلطاننا العظيم... هذا المنزل بنيته من مالي الخاص، وليس من مخصصات الدولة، ولم أجد ما أهديكم إياه سوى هذا البيت الجميل، لذلك أرجوك إقبله مني يا مولاي)).

بعد هذا الكلام هدأت أعصاب السلطان لأنه عرف أن المال لم يصرف من خزينة الدولة، أمّا مسؤول الخزينة مع أنه تكبد مصاريف القصر، إلّا أنه خرج بأقل الخسائر.

شيخ الإسلام زنبيلي أفندي

عندما نتكلم عن هذا الشيخ والعالم الجليل علي زنبيلي أفندي، لا نتكلم عن مؤلفات ضخمة أو تصانيف كثيرة، فكل ما وصل لنا عنه بعض الكتب منها كتاب فقهي اسمه مختارات الفتاوى. لكن ما يميّز هذا العالِم الذي شغِل منصب شيخ الإسلام في أخر عهد بايزيد الثاني وطيلة حكم سليم الأول وأوائل عهد سليمان القانوني هو زهده وقوله للحق، ومنها أثناء حكم السلطان سليم الأول أراد هذا السلطان القوي إصدار فتوى تتعلق بشأن من شؤون الدولة، لكن زنبيلي أفندي رفض أن يفتي للسلطان بما يريد، فكتب السلطان للمفتي يخبره انه سيمضي بما أراد متجاهلاً هذه الفتوى. فأرسل زنبيلي أفندي إلى السلطان يقول له:

((حسنا أيها السلطان ... إن أردت أن تمضي بما تريد سأصدر لك فتوى، لكن هذه الفتوى ليست من أجل ما تريد، بل سوف تكون فتوى تخلعك عن العرش، لأنك بقرارك هذا تخالف الشرع الشريف، ومن حقي وواجبي أن أحميك وأحمي ديننا الحنيف)).

فتراجع السلطان عن قراره، ورضخ للعالم زنبيلي أفندي رحمه الله.

ختم السلطان سليم

يعتبر عصر السلطان سليم الأول من العصور الذهبية، حيث اتسعت رقعة الدولة في عهده اتساعاً كبيراً لتشمل بلاد الشام والعراق والحجاز ومصر والجزائر. وسيطرت في عهده الدولة على خطوط التجارة العالمية فكان لذلك الأثر الكبير في غنى الدولة، أخذ السلطان ينفق على الجيش والإعمار في القاهرة ودمشق وسائر الولايات، ومع أنه أستمر بالحكم ثماني سنوات فقط إلّا أن العلماء والمؤرخون وصفوا فترة حكمه " بشمس الظهيرة " قصيرة الأمد لكنها ساطعة مشرقة، وفي عهده كثُرت الأموال وملأت الخزينة العثمانية، وبعد أن أخبر الموظفون في الخزينة السلطان عن ذلك قال:

((الحمد لله الذي أنعم علينا كل هذه النعم... أقفلوا باب الخزينة بقفل عليه ختم السلطان سليم خان، وان حدث وأستطاع أحد من بعدي من السلاطين أن يملأ الخزينة كما فعلت فليقفلها بختمه)).

وجاء بعد السلطان سليم الأول 27 سلطان لم يستطع أحد منهم أن يقفل الخزينة بختمه، وظلت الخزانة تقفل بختم السلطان سليم الأول حتى انهيار الدولة العثمانية.

العثمانيون والبحر الأحمر

يعتبر البحر الأحمر ذو خصوصية كبيرة وصلت حتى القداسة للعثمانيين لأنها تشرف على الحجاز الذي يضم مكة المكرمة والمدينة المنورة على ساكنها السلام. والذي حدث أن البرتغال أعلنت نيتها الصليبية بتدمير العالم الإسلامي، فبعد أن وصلوا للهند واحتلوا أجزاء من اليمن وهرمز قال فسكوا داغاما كلماته الشهيرة:

((الآن طوّقنا المسلمين ولم يبق إلّا شد الخيط))

هذا البحّار البرتغالي هدم أكثر من 300 مسجد عند نزوله في إحدى حملاته الصليبية على شرق إفريقيا المسلم بمجرد دخوله هذه المدينة، كما أغرق سفينة على سواحل عُمان بعد أن علم أنها تحمل حجّاج، ولم تنتهي حربه الصليبية إلا هذا الحد فقد أعلنت دولته نيتها احتلال المدينة المنورة ونبش قبر سيدنا محمد صلى اللـه عليه وسلم وهدم الكعبة في حرب علنية على الإسلام والمسلمين[1]، لكن والحمد للـه كان للإسلام رجال يستطيعوا أن يدافعوا عن دينهم وأمتهم، فهذا السلطان سليم بعد سماع هذه الإخبار، يعلن الحرب على البرتغال ومطاردة الأساطيل البرتغالية، كما أمر على الفور بإغلاق البحر الأحمر أمام السفن الغربية حتى وأن كانت تجارية ومنع أي شخص غير مسلم من المرور داخله لقوله:

((إن بحراً يُطل على المدينة ومكة هو مقدس عندنا، ولا يجوز أن يعبر منه الكفار)).

وبالفعل استطاع العثمانيون من طرد البرتغاليين من الحبشة واليمن وهرمز والاشتباك معهم في كل المحيطات، وظل البحر الأحمر لعقود طويلة لا يدخله إلا المسلمون، وكان على التجار الغربيين تفريغ حمولتهم في ثغر المخا في اليمن على سفن عثمانية، ثم الذهاب واستلامها من ميناء السويس بمصر.

فتح رودس

بعد أن قام المسلمون بطرد الصليبين من فلسطين، انتقل معظمهم إلى جزيرة رودس[2] في البحر الأبيض، واستطاعوا هناك من إقامة دولة صليبية متطرّفة هدفها

1 كانت هذه فعلاً إحدى مخططات الحرب الصليبية البرتغالية على العالم الإسلامي والتي باركها البابا بعد أن قسّم العالم قسمين, قسم للبرتغال وهو المشرق وقسم لإسبانيا وهو الأمريكيتين. اقرأ عن الحروب الصليبية وتصدي العثمانيين وحماية العالم الإسلامي للاستزادة.

2 جزيرة يونانية تقع في البحر المتوسط وقريبة من اليونان, سكنها الصليبين بعد أن قام المماليك بطردهم من عكا, لتكون نقطة انطلاق وانتقام من العالم الإسلامي, وكانوا على اتصال بالبابا في روما ويتلقون الأوامر والدعاء منه.

الوحيد مهاجمه القوافل الإسلامية وقتل الحجّاج وأسرهـم، وكـانوا شـديدي الحقـد عـلى المسلمين، ولحصانة أسوارها وقلاعها استعصت هذه الجزيرة عـلى المماليـك وحتـى عـلى العثمانيين بعد ذلك وازدادت الرغبة في فتحها لما تشـكله مـن رعـب للتجـارة والمـوانئ الإسلامية على البحر الأبيض، فلقد كانوا قراصنة وقطاع طرق بارعين.

فقرر السـلطان المجاهـد سـليمان القـانوني[1] فـتح الجزيـرة وتخلـيص العـالم مـن شرورهم، فتجهز لحمله ضخمة عام 1522 سار هو على رأسها ومعه الكثير مـن العلـماء. في هذه الإثناء عِلِم البابا ادريـانوس الثـاني بهـذه الحملـة ضـد سـيف المسـيحية وأبنائـه الأبطال كما يسميهم، وأخذ يصلي من أجل نصرهم ودحر خطر المسلمين عـنهم، وخـلال أعياد الميلاد التي صادفت الحصار كان البابا يقيم الصلاة والدعاء في كنيسة سان بيترو في روما، فسقطت حجارة من حافة سقف الكنيسة وتدحرجت نحو قدميـه، فتشـاءم مـن ذلك وقال:

((سقطت رودس... سقطت رودس)).

في هذه الإثناء كان السلطان سليمان يشد الحصار ويدك أسوار القلاع بالمدفعية، وحفر أكثر من 50 سرداب وخندق تحت أسوارها، وشن عليهم هجوما مـن فـوق الأرض ومن تحت الأرض، وتحققت نبوءة البابا بالنهاية واستسلمت رودس.

ركع قائد الجزيرة تحت أقدام القانوني بعد أن سَمح لهم بالمغـادرة وشـكره عـلى سعة صدره ورحمته وتسامحه معهم رغم ما صنعوه بالمسـلمين. كـان مـن نتـائج الفـتح السيطرة الكاملة للعثمانيين على المتوسط ونشر الأمان للتجار والموانئ الإسلامية.

---

1 سليمان بن سليم بن بايزيد 1520-1566, عاشر السلاطين العثمانين, تعد فترة حكمة الأطول بين السـلاطين وأكثرها قوة ونفوذ وازدهار. كما تعتبر فترة حكمة كخليفة الأطول عبر التاريخ حيث إستمرت 46 عام.

الشيخ الذي أبطل قرار السلطان

في فترة معينة من عهد السلطان سليمان القانوني وصلت الإيرادات الموقوفة على مسجد أيا صوفيا والمدارس التابعة له أكثر من المصاريف بكثير، بمعنى وجود فائض. فتقدم المستأجرون لهذه الأوقاف التي تذهب إيجاراتها لأيا صوفيا والمدارس بعريضة إلى المسؤول عن تلك الأوقاف تطلب منه بأن يخفض الأجرة عليهم لوجود فائض، ولا تُعامل محلّاتهم ودكاكينهم بالأجرة الدارجة. وبالفعل قام المسؤول عن هذه الأوقاف برفع مطالبهم إلى مجلس الوزراء، وبعد النظر في القضية وافق المجلس على تخفيض الأجرة ورفع القرار إلى السلطان سليمان القانوني الذي بدورة وافق أيضا عليها وختمها.

ولكن في الدولة العثمانية القرارات التي تصدر إن كانت تتعلق بالفقه الإسلامي أو الأوقاف يجب بالنهاية أن تذهب إلى شيخ الإسلام حتى يقرها. وصل القرار المختوم من مجلس الوزراء والسلطان إلى شيخ الإسلام أبي السعود أفندي[1] ليباركه ويقرّه.

فما كان من الشيخ بعد أن قرأ هذا الحكم إلّا أن مزّق هذا المرسوم، وقال:

((لا يمكن أن يكون أمر غير مشروع مشروعاً بأمر من السلطان، ولا يمكن أن نقول للحرام أنه حلال بأمر من السلطان، هذه أوقاف وأنا أرفض هذا القرار ولا أقرّه)).

وبالفعل ضلّت الأجرة تدفع بالمثل وتم إلغاء قرار السلطان بأمر شيخ الإسلام.

1 محمد ابي السعود بن محي الدين العمادي ت 1574, فقيه ومفتي, وقاضي. من أشهر علماء الدولة العثمانية, قام بتصنيف القوانين الشرعية في دستور زمن السلطان القانوني الذي أخذ هذا اللقب من هذه القوانين, تولى منصب شيخ الإسلام لأطول فترة في تاريخ الدولة 1545-1574.

مكة والمدينة في قلب القانوني

شكّلت مكة والمدينة والقدس محور العشق والاهتمام البالغ بعيون السلاطين العثمانيين لم لها من قدسية في ديننا الإسلامي أولاً، ولِما كانت عليه حالة السلاطين من تدين واحترام للدين والعلماء والشرع الحنيف. وخير دليل على اهتمام العثمانيين وعشقهم لتلك المدن هو الكم الهائل من الآثار العثمانية الموجودة إلى الآن في تلك المدن. وقبل أن يفتح العثمانيون فلسطين والحجاز في عهد السلطان سليم كانوا يرسلون الأموال كل عام دون انقطاع إلى فقراء مكة والمدينة من عهد السلطان محمد الأول الذي سنّ هذه السنّة. فهذا السلطان القانوني من شدة عشقه لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ولمكة والمدينة يتوجه نحو القبلة ويقول دوماً:

" يا حبيب الله يا ضياء العالمين..

ببابك العالي وقف العاشقون...

إن داء لساني بذكرك يُشفى

وفؤادي الجريح أنت ضِماده...."

وبعد أن فتح القانوني بلغراد ورودس وبغداد، تمثل له سيدنا محمد عليه السلم بالمنام وقال له:

((يا سليمان... إن فتحت رودس وبلغراد وبغداد، فقم بإعمار مدينتي))

وبالفعل أرسل السلطان على الفور المهندسين المهرة إلى المدينة ومكة فقاموا بترميم وتوسعة المسجد النبوي والمسجد الحرام وشق الطرق وإنشاء الخانات، كما أوقفوا الكثير من المزارع والمحال في كل ولايات الدولة لصالح الحجّاج ونقل المياه إلى المسجد الحرام والنبوي والأقصى، تذكر بعض الروايات أن السلطان علِم مرة أن المزارعين في القدس يمرون بحليب مواشيهم خلال ساحة المسجد الأقصى مما يودي إلى

اتساخ الأرض أحيانا، فغضب أشد الغضب وأرسل برسالة سريعة إلى الوالي مخالفاً التسلسل الإداري العثماني متجاوزاً الصدر الأعظم وهذا لا يحدث الا في حالة الحروب أو الكوارث، جاء فيها:

((لقد وصل إلى مسامعنا انتشار بعض العادات السيئة والمُخالِفة للشرع الشريف بين أهالي المدينة، فإذا مات شخص خرجت النسوة إلى الشوارع، وإن الأهالي المجاورين للحرم يرمون أحياناً بنفاياتهم بقربه دون رقابه من الموظفين هناك، ولقد سمعنا أن بائعوا اللبن والحليب يمرون في طريقهم إلى السوق من داخل الحرم ويسقط منهم بعض الحليب على أرض المسجد المبارك، وهذا كله لا يجوز، فنحن نحمل على عاتقنا حماية المقدسات الشريفة. إذا وصلك كتابي هذا فأمنع ما ذكرناه لك وأحتفظ به إلى حين قدوم القاضي الذي سوف نبعثه لك...)).

كما أوصى قبل موته بتوصيل الماء من عين زبيدة إلى الحرم، وكان أخر كلام أوصاه برسالة إلى ابنه سليم عند موته:

((يا بني .. يا مهجة روحي.. هذا الصندوق الذي بعثته لك فيه بعض الجواهر والنقود من مالي الخاص، كنت قد ادخرته للحرمين الشريفين، يا بني إن متُ فخذ هذا المال وأنفقه على مساكين وفقراء مكة والمدينة وقم بتوصيل الماء الى أهالينا في مدينة جدة ...)).

السلطان الشاعر سليمان

تميز كل السلاطين بقول ونظم الشعر، فالسلطان سليم الأول معروف بأنه أشهر شعراء عصره، ودواوين الفاتح وبايزيد وسليم الثاني وسليم الثالث تدعو للإعجاب.

ولقد وصل من كَتبَ الشعر من السلاطين باحترافية زهاء عشرين سلطاناً من أصل ستة وثلاثون، ويعود هذا للتنشئة والتربية الأدبية العالية للسلاطين.

ومن المتفق عليه أن السلطان سليمان القانوني وصل بعظمة شعره إلى مقدار قيادته العسكرية والسياسية، استخدم القانوني اسم محبي الفني ومفتوني، وعاجزي. كتب 2779 قصيدة على بحر الغزل وهو رقم قياسي ما زال مُسجل باسمه إلى الآن. كما ألّف الكثير من القصائد بالفارسية بشكل رائع. طبعت السلطانة عادلة بنت السلطان محمود الثاني عام 1899 ديوان جمعت به قصائده باسم " محبي ".

وتبقى أشعاره التي قالها بالعربية محل إعجاب النقاد، ففي أثناء مرور السلطان سليمان القانوني من بلاد الشام نزل بوادي حماة، وبها النهر المعروف " نهر العاصي "، فنظر إلى النواعير وقال:

نواعيرٌ على وادي حماة تجاوبت . . . تهيجُ من بالبكا مدمعي القاصي.

وإني على نفسي لأجدر بالبكا . . . إن كانت الأخشاب تبكي على العاصي.

قال الأديب التركي الشهير اميل جلبي أغلو:

" إن القانوني يحتل مكانه في الشعر العثماني، وحتى لو لم يكن سلطاناً فشعره جدير بأن يجعله أحد المشاهير)).

هولندا تسغيث بالدولة العثمانية

كانت هولندا دولة بسيطة وصغيرة، وتتعرض بإستمرار إلى هجمات من قِبل الإسبان الذين حاولوا احتلالها، ولأن اسبانيا كانت في حالة حرب مع الدولة العثمانية قرر أعيان وأمراء هولندا بمحاولة طلب النجدة والمساعدة من العثمانيين، وصل الوفد إلى مقر السلطان سليمان في إسطنبول وشرح له الظلم الذي يعانيه الشعب الهولندي من بطش وهمجية الإسبان، وكيف إنهم يعيشون برعب لا يوصف، وقال الوفد أنهم

جاؤوا وكلهم أمل من ملاذ الكون وسيف العدل وناصر المستضعفين أن ينجدهم من هؤلاء البرابرة. فقال لهم السلطان:

((لا تخافوا .. ولا تيأسوا من نصرنا، فنحن وجِدنا لنصر الحق وسحق الطغاة الجبارين)).

التفت السلطان إلى أحد أعوانه وأمره بأن يُحضر له 40 بذلة من زي الانكشارية، أعطى السلطان الوفد البدلات العثمانية وقال لهم:

((إذا خرجوا لكم الاسبان، البسوا هذه البزّات في ساحة القتال)).

خرج الوفد وهو حزين مكسور الخاطر، لأنه كان يرجو أن يرسل السلطان معهم فرقة من الانكشارية تساعدهم ضد الأسبان أو بعض الأسلحة الحديثة وليس بعض القماش. وعند عودتهم أخبروا أمراءهم كيف أن العثمانيين خذلوهم وليس لهم خيار سوى أن يقاتلوا بأنفسهم، فخرجوا لملاقاة الأسبان وقاموا بارتداء لباس الانكشارية، خُلعت قلوب الأسبان عندما شاهدوا الزّي العثماني في صفوف الجيش الهولندي، فهم يعرفوه جيداً وظنوا إن العثمانيين جاوؤا لمساندة هولندا فانسحبوا على الفور لأنهم يعلمون جيداً ما يعنيه أن تلاقي العثمانيين في أرض المعركة.

انتهت المعركة قبل أن تبدأ ولم يتمالك الهولنديون أنفسهم من الفرح وأخذوا بالغناء والرقص والاحتفال واحتفظوا ببدلات الانكشارية لمناسبات أخرى. وحتى بعد أن عاود الإسبان محاولة احتلال هولندا مرة أخرى بجيش ضخم واعتقدوا أن بلادهم سقطت لا محالة، شاهدوا فجأة هروب الأسبان وانسحابهم دون سبب، وبعد التقصي تبيّن أن خير الدين[1] بربروس يحاول بجيش عثماني استعادة الأندلس، فعاد الأسبان

1 هو أحد أكبر قادة الأساطيل العثمانية وأحد رموز الجهاد البحري ، تولى منصب حاكم الجزائر ثم عينه السلطان سليمان القانوني كقائد عام لجميع الأساطيل البحرية للدولة العثمانية, يعرف بالغرب بباربروسا أي صاحب اللحية الحمراء.

للدفاع عن بلادهم. هذه الأحداث جعلت الهولنديين ينظرون للعثمانيين بعيون الحب وتصورهم كأنهم ملائكة الخلاص، فلا تستغرب إن زرت مدينة لايدن بهولندا اليوم ووجدت تمثال بربروسا يزين واجهات بيوتهم تكريما له[1]، ولا تستغرب أن دخلت المتاحف الهولندية ووجدت بعض العملات والميداليات على شكل هلال من تلك الفترة مكتوب عليها:

((نحب العثمانيين أكثر من البابا)).

وكان هذا الشعار[2] يردده الهولنديون أثناء حروبهم ضد الأسبان.

جيش السلطان سليمان

في صيف إحدى السنوات تجهز السلطان سليمان القانوني في حملة كبيرة إلى داخل أوروبا لصد وتهذيب بعض الجيوش الأوروبية. وفي طريقهم مرّوا في منطقة ذات تضاريس صعبة ومليئة بالكروم الشهية والبساتين لبعض القرى المسيحية، كان الجو حار والتضاريس الصعبة جعلت الجيش يمشي ببطء ويصاب بالعطش ومع أنهم كانوا يمرّون بالقرب من القرى والمزارع إلّا أن التعليمات صارمة بعدم مضايقة السكان وأخذ أي شيء منهم وتجنب حتى الحديث معهم لكي لا يكون الجيش مصدر إزعاج وخوف للسكان.

الّا أن العطش ومنظر العنب الشهي دخل في نفوس بعض الجنود، فأخذوا القليل الذي بالكاد يكفي شخصاً واحد ليتصبروا به، وجمعوا مالا ووضعوه بكيس صغير وعلقوه بمكان قطف العنب ثمناً له، كان أحد المزارعين يشاهد الجنود دون أن

1 يوجد في مدينة لايدن الهولندية عمارة مكونة من أربعة طوابق بنيت في القرن السادس عشر تم وضع تمثال لخير الدين في أعلى البناية تكريماً له.

2 هذا الشعار كان يصيح به الهولنديون عندما يلاقوا الإسبان لكي يغيظوهم, لأن الإسبان كاثوليك تابعون للبابا, والدولة العثمانية ألد أعداء الإسبان.

ينتبهوا، وصُعق من هذا المنظر، فأسرع إلى أهل القرية وأخبرهم بما شاهد من عجب .. نعم... هذا الشيء لا يصدق.! هل يحلمون ؟! أي أخلاق هذه التي يسمعونها.

فقرروا أن يجتمعوا ويذهبوا إلى رئيس جيشهم ليخبروه بما شاهد، ويكافئ الجنود الأمناء. فلحقوا بالجيش وهناك طلبوا بأن يجتمعوا بعظيم ورئيس الجيش ورفضوا الإفصاح عن السبب، وقالوا إنه شيء يجب أن يعرفه رئيسكم، فأدخلوهم على السلطان سليمان، أصابتهم الدهشة فهم لم يكونوا يعتقدوا أن السلطان من يقود الجيش، وبعد أن استجمعوا قواهم، شكروه على جيشه العظيم الذي لم يروا مثله ولا بأخلاقه ثم أخبروه بالقصة وطلبوا من السلطان أن يكافئهم.

أمر السلطان على الفور من أغا الجيش بإحضار هؤلاء الجنود الذي وَضعوا النقود، وبعد مدة دخل على الفور أغا الجيش ومع الجنود الأبطال وما زال الوفد حاضراً أمام السلطان، قام السلطان وبدت عليه العصبية وأخذ يوبخ الجنود ويقول:

((كيف تسول لكم أنفسكم فعل شيء عظيم كهذا وتخالفون الأوامر بعدم الاقتراب من أي بستان، ثم هل أخذتم الإذن، وما أدراكم أن النقود التي وضعتموها تكفي لما اقترفتموه... يا أغا اطرد هؤلاء الجند من الجيش)).

صُعق الوفد وجثوا على ركبهم وقالوا:

((يا سلطان العالم، يا سيدنا العظيم إنما جئناك لتكرّمهم لما فعلوا من أخلاق عالية، وإننا والله راضون بما أخذوه حتى وان لم يعطونا شئ)).

فقال السلطان:

((إن دولتنا لمّا سادت على الدول، وجيشنا لما أصبح لا يقهر كان بسبب العدل، وديننا الذي أمرنا أن ننتصر للحق حتى لو كان للأعداء)).

فخرج الوفد وهم يبكون فلم يشاهدوا مثل هذا عجباً[1].

الشاعر فيجاني وبيته الذي قتله

يُعد فيجاني[2] أحد أهم الشعراء العثمانيين وأحد أهم ثلاثة شعراء مشهورين تصاحبوا في نفس الفترة إبّان مطلع القرن السادس عشر في اسطنبول، تميّز فيجاني عن رفيقيه بنهايته المأساوية بسبب بيت من الشعر قاله منتقداً الصدر الأعظم. في شبابه درس فيجاني على يد طبيب قبل أن يبدأ اهتمامه بالأدب، فيما كسب رزقه من العمل في وظيفة كاتب وهي تعادل سكرتير اليوم، إضافة إلى بيعه قصائد الغزل للعشاق. وكان قريباً من الشاعريين نعتي ونوحي وأعتاد الثلاثة الالتقاء في دور المسامرة في اسطنبول لتزجية الوقت.

نهاية فيجاني جاءت بسبب بيت من شعر غنائي كتبه باللغة الفارسية، وخص به إبراهيم باشا الصدر الأعظم في زمن السلطان سليمان القانوني، فبعد عودته من الحملة المظفرة على المجر عام 1526، جلب إبراهيم باشا من بودا[3] ثلاثة تماثيل جميلة لشخصيات الآلهة الروماني: ابولو، هرقل وديانا، وأقامهما في باحة قصره في اسطنبول. لقي هذا التصرف امتعاض العامة، فديننا الإسلامي يحرّم نصب التماثيل حتى وأن

1 كانت الجيوش العثمانية تطبق قوانين ذات صرامة, أكبر مما هي عليه في الوضع الطبيعي. فمثلاً السرقة و مخالفة ولي الأمر والزنا بالإضافة إلى الحد الشرعي فهناك عقوبة تعزيرية إضافية, كانت هذه القوانين ضمن فتاوى ويطبقها قضاه ضمن الجيش. الهدف منها ضبط الجيش الضخم, لذلك كان الانضباط في الجيش العثماني حديث الغرب في تلك الفترة.

2 فيجاني هو الاسم ألقلمي " الأدبي " جرياً على التقاليد الأدبية العثمانية في تمييز الشعراء بأسماء مستعارة تكون على الأغلب من مفردة واحدة وموسيقية, وأسمه الأصلي هو رمضان. أستخدم السلاطين الشعراء أيضا أسماء أدبية مستعارة, فمثلا أستخدم الفاتح اسم عوني في قصائده, وأستخدم السلطان مراد اسم مرادي, والسلطان سليم اسم سليمي. ومحمد الرابع اسم وفائي, ومصطفى الثاني اسم مفتوني.

3 بودا الاسم القديم لمدينة بودابست الآن وهي عاصمة المجر " هنجاريا ",

كانت لهدف الزينة أو لأهانه المجر التـي سُرقـت آلهتهـا. سرعـان مـا انـتشر في المجتمـع العثماني بيت الشعر الذي قاله فيجاني، وأخذ حتى الأطفال يرددونه، وترجمته هي:

((في هذا العالم ظَهر إبراهيمان[1]، الأول كسرَ الأصنام والآخر نصَبَها)).

هذا البيت رغم الشكوك حول نسبته إليه كلّف فيجاني حياته، لأنه أهـان الصـدر الأعظم وأتهمه بالوثنية، فأخذ مباشرة وشُنق.

ملك فرنسا الأسير يستغيث بالسلطان سليمان

كانت فرنسا على خلاف قوي مع اسبانيا عدوة الدولة العثمانيـة بسـبب الأطـماع الاسبانية بأراضي وأملاك فرنسا، أدى هذا النزاع والخلاف إلى معارك طاحنة بين الطـرفين، استطاع من خلالها الأسبان هزم فرنسوا الأول ملك فرنسـا وتـم أسره وإرسـاله مقيـداً إلى العاصمة مدريد. في هذه الفترة يُرسل الملك فرنسوا الرسائل الكثيرة إلى سـليمان القـانوني يطلب منه النجدة والعون، وكانت معظم رسائله تبجل السلطان سليمان فيقول:

" إلى ملـك العـالم... إلى سـلطان الـدنيا... إلى عظـيم أوروبـا ونـاصر الحـق.. مـن خادمكم فرنسوا الأول ".

فأرسل له السلطان سليمان برسالة يطمئنه بها، ويعده بالخلاص مـن الأسر، وكـان ذلك عندما اضطرت اسبانيا لفك أسره وتوقيع اتفاقيه مع فرنسـا بسـبب إعـلان الدولـة العثمانية الحرب على اسبانيا ومحاولة استعادة الأندلس. جاء بالرسالة الطويلة:

" بعناية اللـه جلت قدرته وعلت كلمته، وبمعجزات سيدنا محمد سـيد الأنبيـاء، وبمؤازرة بركة أرواح الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان اللـه عليهم....

---

1 قصد الشاعر بإبراهيم الأول سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كسر الأوثان.

أنا سلطان السلاطين، ومتوّج الملوك، وظل اللــه في الأرض، مالـك البحـار والأرض، أنا السلطان سليمان بن سليم خان بن بايزيد خان أكتب إلى فرنسوا ملك ايالة[1] فرنسا....

وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسـلتموه مـع تـابعكم فرانقبـان، وعلمنا أن عدوكم استولى على بلادكم، وإنكم الآن محبوسون وتستدعون من جانبنا مدد العناية بخصوص خلاصكم، وكل ما قلتموه عُرض على أعتاب سدتنا الملكونية، وأحاط بها علمي الشريف على وجه التفصيل فصار معلوماً. فلا عجب من حبس الملـوك وضـيقهم، فكن منشرح الصدر ولا تكـن مشـغولاً، فإننـا فـاتحون الـبلاد الصـعبة والقـلاع المحصّـنة وهازمون أعدائنا، وإن خيولنا ليلاً ونهـاراً مسروجـة، وسـيوفنا مسـلولة، فـالحق سـبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته. وأما باقي الأحوال والأخبـار تفهمونهـا مـن تـابعكم المذكور)).

وبعد أن تـم تخلـيص فرنسـوا مـن الأسر تـم عقـد اتفاقيـات كثـيرة مـع الدولـة العثمانية وإنشاء تحالف ضد اسبانيا، الأمر الذي شكل غضب البابا وكل أوروبا.

قارع الأجراس في كنيسة سان شتيفان

تختلف هذه الكنيسة الواقعة في فينا عن باقي كنائس العالم، فهـي تحتـوي عـلى موظـف يسـمى قـارع الأجـراس والغريـب أن هـذه المهنـة ليسـت لهـا علاقـة دينيـة بالكنيسة... لكن ما هي وظيفة هذا الرجل، ولماذا هذه الوظيفة.؟!.

في عام 1534 أثناء محاولة العثمانيين لفتح النمسا وفينا، شـاهد رجـل مـن أعـلى برج الكنيسة الشاهق بعض جنود الصاعقة العثمانيين يقتربون من المدينـة، فقـام بقـرع الأجراس ونبّه الحرس والجيش الذين استعدوا وانتشروا على أسوار المدينة.

---

1 اياله تعني ولاية, وفي الرسالة أهانه لتسمية فرنسا بهذا الاسم. إذ اعتبرتها الرسالة كأنها بمقام أحد الولايـات العثمانية.

فما كان من الحكومة إلّا أن سُرّت بهذا الرجل وقامت بتعيين موظفين يتناوبون على الصعود إلى أعلى الكنيسة المطلة، لإخطار الجند في حال اقتراب العثمانيين، وظلّت هذه المهنة سارية حتى أثناء المعاهدات والصلح بين الطرفين، وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية عام 1922 ظلّت موجودة إلى أن ألغاها مجلس البلدية في فينا عام 1956 بداعي زوال الدولة العثمانية والخطر العثماني.

المرتد قابز والعالم ابن كمال

في عهد السلطان سليمان القانوني ظهر رجل عالم اسمه قابز قدِم من إيران، وكان يجيد بمهارة علم الكلام والخطابة، وله أفكار غريبة فكان يدّعي مثلاً أن سيدنا عيسى عليه السلام أفضل من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن النصرانية أفضل من الإسلام، وكان كثير الإطلاع وقوي الحجة ويجلب الأدلة والبراهين من القرآن.

إنتشر خبر هذا الرجل في كل اسطنبول، وبدأت علامات التذمر تنتشر بالمدينة بين العامة، وفي يوم من الأيام جاءه رسول من الصدر الأعظم يخبره بموعد مناظرة بينه وبين بعض العلماء في مجلس السلطان سليمان. فَرِح الرجل كثيراً، فلقد حقق ما كان يريده من شهرة. بدأت المناظرة وكان من يناظره مفتي الأناضول ومفتي الروملي، أمّا السلطان فكان يستمع من خلف ستارة. تحدث قابز برأيه مستدلاً بالأحاديث وبعض الآيات، فوقف له العالمان وأوضحا له سوء تفسيره وفهمه للآيات والسور التي استدل بها، وإن كل ما تكلم به كان خطأ، إلّا أن قابز أخذ يلتف بالكلام ويرد، وبعد أن استمر النقاش لساعات، قال له العالمان إنك مرتد ويجب أن يقام عليك حد الردة إن لم ترجع عن ما تقول.

أمر الصدر الأعظم قابز والعالمان بالانصراف، فقال السلطان:

((كيف تصرفه، ألم تسمع دعواه الباطلة؟ ثم الم تسمع رأي الشيخين بوجوب إقامة الحد عليه.؟!)).

فقال الصدر الأعظم:

((نعم يا مولاي.. لكن ليس قبل أن نفحَمهُ بالدليل فيموت معه فكره، أمّا الآن لو قتلناه لظهر وكأنه شهيد)).

فقال السلطان :

((لكن كيف السبيل إلى ذلك وهو بهذا العناد)).

فقال الصدر الأعظم:

((يا مولاي ليس له إلّا شيخ الإسلام العلامة ابن كمال، فهو الوحيد القادر على إسكاته)).

تم ترتيب مناظرة جديدة ، وطار قابز من الفرح الذي أصبح يظن نفسه أنه عالم أفضل من كل العلماء الذين ناظروه. ابتدأ النقاش ولمّا فرغ قابز من كلامه، أنبرأ له شيخ الإسلام وأوضح له الصحيح، وكلما أراد قابز أن يخرج من باب أغلقه عليه ابن كمال بعلمه ومنطقه وقوة أسئلته ورده، وما هي إلّا دقائق حتى سكت قابز ولم يقدر على الكلام. فأنكسه اللـه ولم يجد ما يرد به على أسئلة ابن كمال.فقال له:

((يا بني عليك بالتوبة، وإلّا اعتُبِرت مرتداً)).

إلّا أنه رفض الرجوع وأخذ يسب العالم ابن كمال، فأمر الصدر الأعظم على الفور رجاله بأن يأخذوه ليلاقي جزاءه بالقتل.

نظر الصدر الأعظم إلى السلطان وقال له:

((الآن يا مولاي.. نستطيع أن نقتله)).

فرحم اللـه العالم المتين والسد المنيع ابن كمال الذي قال فيه التاجي:

" قلما يوجد فن من الفنون وليس لأبن كمال مصنف فيه ".

شارلكان يبكي على شواطئ الجزائر

كان شارلكان من أعظم ملوك أوروبا وعلى عداوة دائمة مع العثمانيين، وعزم مـرة على تدمير الجزائر واحتلالها، وقوي عزمـه بعـد أن اسـتطاع رد أسـد البحـار خـير الـدين بربروس عن شواطئ اسبانيا، واعتقاده بأنـه نجـح في شراء ذمـة حسـن أغـا بـأن يجعلـه حاكما على الجزائر ويستقل عـن الدولـة العثمانيـة ليصبح تحـت سـيادته مقابـل عـدم تدخله أثناء حملته على الجزائر.

وقد أظهر خير الدين وحسن أغا اسـتجابة وهميـه لـه بيـنما كانـا يعـدّان العـدة لتدميره. قدِم شارلكان في حوالي 40 ألف جندي من مختلف الـدول الأوروبيـة في حملـة صليبية ضخمة، ولما وصل وادي الحراش في الجزائر ضرب معسكره هناك. أرسل كما هـو متفق عليه لحسن أغا لتسليم المدينة، إلّا أن الرفض والحرب كان جواب حسـن، فـأحس شارلكان بوجود مكيـدة، ولتقـدير اللــه تعـالى تهـب ريـاح قويـة تجعـل الإبحـار شـبه مستحيل، وأخذت سفن التحالف ترتطم يبعضها وتتكسر، في هذه الأثناء يـنقض الأتـراك والجزائريون على الجيش الصليبي ويُمطروه بالمدافع، أشـتدّ القتـل في صـفوفهم وأخـذت القوات الصليبية بالفرار تحت ضرب البنادق، حدثت فوضى عظيمة في صفوف الصـليبين الذين أصبحوا بين البحر وجيش حسـن أغـا، لكـن اسـتطاع شـارلكان مـع بعـض حرسـه الفرار بسفينة تاركاً خلفه وهو يبكي معظم جيشه جثثاً هامدة، وقد غـنِم المسـلمون في هذه المعركة الكثير من الكنوز التي سرقها شـارلكان مـن الهنـود الحمـر في المسـتعمرات الأمريكية.

رَسمت هذه المعركة صورة مرعبة عـن قـوة الجزائـر التـي لا تقهـر، وأمـا البطـل حسن أغا فقد وافته المنية بعد هذا النصر الساحق بسنوات.

نيس ومرسيليا وطولون تشهد للعثمانيين

شهدت العلاقات الفرنسية الاسبانية توتراً شديداً تخلّلتها الكثير من المعارك والحروب كان النصر دوما حليف الإسبان، واستطاعت اسبانيا احتلال الكثير من الأراضي الفرنسية، ولأن فرنسا تحت الحماية العثمانية وصلت الأوامر لخير الدين بقياده حملة لتحرير مدينة نيس الفرنسية من الاحتلال الاسباني، فضرب خير الدين الحصار على نيس بعد أن مر على سواحل ايطاليا وأدّبها، وأخذ بقصف القوات الاسبانية داخل المدينة إلى أن طردها، لكن هذا النصر لم يلب طموح خير الدين الذي أخذ يوبخ ويهين القوات الفرنسية لعدم جاهزيتها، وتكريما للمجهود العثماني تنازل فرنسوا الأول ملك فرنسا عن مدينة مرسيليا للعثمانيين لتصبح مدينة عثمانية وتكون نقطة انطلاق للحملات الجهادية الإسلامية، كما أستقر خير الدين بقواته العثمانية في مدينة تولون الفرنسية الواقعة بين نيس ومرسيليا، وأصبحت المدينة وكأنها عثمانية الثقافة، وتحولت كنيسة كاتدرائية القديسة مريم إلى مسجد حتى أن العملة المتداولة داخل هذه المدينة كانت عثمانية.

ومن الآثار الباقية إلى اليوم في مدينة نيس هي قذيفة عثمانية في شارع درويت ألقيت أثناء الحصار، معلّقة على احد أسوارها، تخبر المارة بفضل العثمانيين في تحرير المدينة الفرنسية من الاحتلال الأجنبي.

القانوني وإيران

شكّلت إيران مصدر قلق دائم للعثمانيين لتبنيها المذهب الشيعي وإجبار الناس عليه[1]، كما شكّل حلمها بحكم العراق والشام هاجساً أدى إلى صراع طويل مع العثمانيين، وفي عهد القانوني وحده خرج العثمانيون بحملتين على إيران بهدف مسح الصفويين من الوجود، إلّا أن الشاه طهماسب[2] كان ذكياً ويعلم جيداً ما يعنيه أن يلاقي القانوني في المعركة فكان يفر دوماً من ملاقاة العثمانيين.

ظلت ورقة واحدة بيد السلطان سليمان في قلب إيران من شيعية الى دولة سنيّة وذلك بصنع ثورة داخل إيران. في عام 1548 أطلق السلطان سليمان القانوني القاس ميرزا[3] أخ طهماسب وهو سنّي العقيدة وبعثة إلى إيران مع قوات عثمانية ليُثير المدن والناس ضد أخيه ويطالب بالعرش، واستطاع بدعم السلطان سليمان أن يلاقي نجاحاً كبيراً ويأخذ الكثير من الولايات ويعلن نفسه شاه على إيران، لكنه للأسف لم يكن بذكاء وقوة أخيه طهماسب، فلم يستطع الحفاظ على أملاكه، وللأسف لم تفلح هذه المحاولة التي لو نجحت لغيّرت إيران التي نراها الآن.

1 كان سكان إيران معظمهم من أهل السنة والجماعة, وعند وصول العائلة الصفوية على يد مؤسسها إسماعيل الصفوي إلى الحكم قاموا بإجبار الناس على اعتناق المذهب الشيعي, كما قاموا بقتل رموز وعلماء أهل السنة. والآن أصبحت تشاهد عائلات كانت بالسابق من السنة وأصبحت شيعية ولها علماء مثل العالم السني الشيرازي. وتنسب الصفوية إلى مؤسسها صفي الدين وأخذت حركته بالانحراف والتوسع إلى أن تبنت المذهب الشيعي.

2 هو أحد شاهات وحكّام إيران الأقوياء, كان خلفاً لأبيه إسماعيل الأول, 1514-1576.

3 القاص ميرزا هو أخ طهماسب والابن الثاني لاسماعيل, تولى خلال حكم أخيه منطقة شهروان, وما لبث أن ثار على أخيه وأعلن إستقلاله, لكنه هرب بعد أن قدم أليه طهماسب بجيش. وعد القاص السلطان سليمان إن ساعده بحكم إيران أن يعيد الشعب إلى السنة والجماعة, ورغم كل الدعم من العثمانيين إلّا أن القاص فشل بسبب شخصيته الضعيفة.

القانوني يمنع الرقص في فرنسا

كانت فرنسا في فترة من الفترات حليفاً قوياً للدولة العثمانية كما أنها كانت تتلقى المساعدات المالية والعسكرية باستمرار. أرسل هنري الثاني ملك فرنسا يوما رسالة إلى السلطان سليمان جاء فيها:

((لم يبق لدى فرنسا أي أمل في المساعدة من أي مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم، حيث أن سلطان العالم قد قدّم من قبل مساعداته لمرات عديدة. إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سُوعدت بمقدار من النقود والبضاعة، إن هذه المساعدات تعتبر لا شيء بالنسبة إلى سلطان العالم)).

وبالفعل كان السلطان لا يبخل في مساعدة فرنسا المرتمية تحت جناح الدولة العثمانية ويحثّها على الصمود وتطوير نفسها كما كان يتابع مصير النقود التي يرسلها، وحدث أن سمع مرة من خلال رجاله أن عادة الرقص والمجون والبغاء تنتشر في فرنسا بشكل كبير أكثر من أي مكان آخر، فأرسل رسالة إلى ملك فرنسا يخبره بانزعاجه من هذه العادات القذرة المنتشرة في فرنسا، ويأمره أن يوقِفها ويحاربها بأي شكل لخوف السلطان من أن تنتشر هذه العادات إلى الدولة مستقبلاً نظراً للعلاقات المتبادلة بين الطرفين.

السلطان سليمان والعجوز

وصلت الدولة العثمانية إلى أوج حضارتها وأخلاقها وتكافلها الاجتماعي في عهد السلطان سليمان القانوني، فجرائم القتل والسرقة والزنا نادرة جداً بل تكاد لا تحدث مطلقاً بفضل الله في الدولة العثمانية، مع أن استانبول في ذلك الوقت كانت أكبر مدينة في العالم.

ومع ذلك حدث مرة أن قام سارق بدخول بيت امرأة عجوز وسرق بيتها، ولمّا إستيقضت عرِفت أنها تعرضت للسرقة. خرجت على الفور وتوجهت لقصر طوب

قابي حيث السلطان سليمان هناك وإفراد الحكومة. ومع أن السلطان كان مشغولاً في اجتماع مع وزرائه، إلّا أن العجوز أصرّت على الانتظار ومقابلة السلطان ورفضت الانصراف. وبعد انتهاء السلطان من أشغاله أخبره الموظفين بأمر العجوز، دخلت العجوز على السلطان وأخبرته بحالها وما حدث لبيتها. بدت على السلطان علامات العصبية والتأثر لهذه الحادثة، إذ كيف تتم عملية سرقة في المدينة ولامرأة عجوز ووحيدة.!! أين الأخلاق ..؟! وأين رجال الشرطة..؟!.

فقال لها السلطان:

((وأنت يا أمي، كيف يُسرق بيتك وأنت في نوم عميق، كيف لم تنتبهي لبيتك.؟!))

فردّت العجوز عليه بجواب حكيم وذكي:

((يا سلطان المسلمين...عرفت عدلك، وعرفت قوتك، وعرفت أنك تحمينا وتسهر على أمننا وراحتنا، فنمت وأنا لا أخشى شئ غير الله)).

مسجد أراده رسول الله

كان السلطان سليمان عادلاً مجاهداً في سبيل الله تقياً، حدث مرة أن حلِم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يأمره ببناء مسجد كبير وأخبره أن هذا المسجد سوف يكون بعون الله منارة للعلم والعبادة. ولمّا استيقظ السلطان من نومه لم تحمله الدنيا من الفرحة لرؤية سيدنا محمد عليه السلام، فقام على الفور ليباشر بتنفيذ الرؤية الشريفة.

فأرسل في طلب رجاله وأمرهم على الفور بأن يختاروا أفضل مكان مرتفع ومُشرف ومطل على سائر المدينة. وبالفعل عادوا اليه وأخبروه بالمكان المناسب،

فانطلق السلطان على الفور وأخذ معه المهندس الشهير سنان أغا[1] وأخذ يتفقد المكان، وبينما هو على هذا الحال تقدّم منه سنان أغا وقال له:

((يا سلطاننا العظيم.. أتريد أن تبني مسجداً كبيراً هنا كما أمرك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟)).

اندهش السلطان كثيراً، فهو لم يخبر أحداً بهذه الرؤية، فقال السلطان:

((نعم .. كيف عرفت !؟، أصدقني القول من أخبرك بذلك ؟))

فقال له سنان أغا:

((يا مولاي.. لقد جاءني البارحة في المنام سيد البشرية محمد عليه السلام، وأخبرني أنه أمرك ببناء مسجد وسأكون أنا من يبنيه))

ابتسم السلطان فهو يتلقى إشارة ثانية أيضاً بأمر سيدنا محمد عليه السلام، فأمر سنان باشا على الفور بالمباشرة في التخطيط لهذا المسجد الذي يُعتبر أروع المساجد العثمانية، وسنذكر لكم عدة قصص جميلة حول بناء هذا المسجد الذي سمّي بالسليمانية.

الأقجة

بعد أن تم الانتهاء من وضع المخططات لمسجد السليمانية والكليات والمرافق التابعة له، أعطى السلطان الأمر بمباشرة البناء. أخذ المشرفون على المشروع بإستملاك الأراضي والبيوت وتعويض السكان بثمن جيد ومضت الأمور بالشكل الصحيح

1 خوجة معمار سنان 1489-1588, أشهر مهندس عمارة عثماني على الإطلاق, ولد في الأناضول وتدرج بالجيش في قسم الهندسة إلى أن أصبح المسؤول كبير معماري الخاصة السلطانية, وهو أرفع منصب. يرجع له الفضل في إيجاد وتوحيد عمارة خاصة بالدولة في كل الولايات, توفي رحمه الله وقد ترك مئات الأعمال المعمارية.

باستثناء رجل يهودي رفض البيع، وبعد الكثير من المحاولات معه أصرّ على عدم البيع، وعندما سأل السلطان عن سبب التأخير بمباشرة البناء أخبره بالأمر.

فقال لهم:

((لا بد أنه طمع بالمال... أعطوه ما يريد.))

فقالوا له:

((يا مولاي .. لقد دفَعنا له أضعاف مضاعفة، وهو مصر على عدم البيع. ولا يوجد حل سوى أن نأخذ البيت بالقوة ونعوّضه)).

فقال السلطان:

((لا .. لن نفعل ذلك. سأذهب أنا بنفسي وأقنعه، لعله يقدّر مجيئي اليه)).

أنطلق السلطان اليه وأمر المرافقين بانتظاره بعيداً، تقدم نحو الباب وطرقه منتظراً خروج الرجل. فتح الرجل الباب فوجد أمامه رجلا جميل الوجه حسن الهيئة، توحي نظراته بعظمته، وبعد أن رد السلام عليه قال:

((تفضل ماذا تريد ..؟))

فقال السلطان: ((أنا السلطان سليمان، جئت لأتحدث اليك لو سمحت لي.))

صُعق الرجل من الدهشة والخوف وأخذ يتلعثم ولا يعرف بما يرد، وبعد أن أستجمع قواه. قال له السلطان:

((لا تخف.. لا تخف.. لقد جئت إليك راجياً منك أن لا تردّني خائباً، فلي طلب منك أن تبيعنا بيتك لأننا نرغب ببناء مسجد هنا، ولو لا قدر الله لم تبِعنا بيتك لتوقف المشرع لذلك أنا أرجوك أن تقبل)).

لم يتوقع اليهودي أن تتطور الأمـور إلى هـذه الدرجـة ويـأتي أليـه سـلطان الـدنيا وملك أقوى دولة بالعالم ليرجوه ببيع بيته الصغير، لذلك أقتنع سريعـاً ورضي بـالتعويض. فرِحَ السلطان ثم انطلق إلى سنان أغا وقال له:

((الآن يا سنان بإمكانك أن تباشر بالعمل)).

ثم تناول إقجه[1] من يده وأعطاها لسنان أغا، أخذ سنان الاقجة وهو يبتسم وقال:

((سأفعل أن شاء الـلـه)).

وبعد اكتمال البناء وجاء يوم الافتتاح تفقـد السـلطان سـليمان المبنـى والمـدارس والكليات وكل المرافق، فقال له سنان أغا:

((ها أنتم أكملتم التفقد يا مولاي))

فأخرج من جيبه اقجة وأعطاها للسلطان وقال له:

((هذه الاقجة يا مولاي))

تبسّم السلطان وأخذ الاقجة، أستغرب مرافقوا الأغا واخذوا يسـألوه مـا سر هـذه الاقجة ؟، فقال لهم:

((قبل البدء بالعمل أعطاني السلطان إقجة وكان قصده إنني لا أريـد أن أرى أي خطأ أو نقص بالمبنى ولو بقدر إقجة، وبعد أن تفقد البناء ولم يلاحظ أي خطـأ أرجعـت له الاقجة، وقد أخذها وهو يبتسم لأنه لم يلحظ أي خطأ بمقدار إقجة)).

1 هي العملة السائدة في الدولة العثمانية, ضربت لأول مرة في عهد السلطان اورخان, والاقجة تساوي ثـلاث بارات,ظلت مستخدمة إلى أن الغيت عام 1832.

كوب اللبن

لمّا بُشِر ببناء مسجد السليمانية، أصدر السلطان سليمان أوامره لكل المشرفين والعمال بعدم قبول المساعدات أو جمع التبرعات لبناء المسجد، لأنه أراد أن يكون من مالِهِ الخاص، وتكفّل بكل مصاريف العمال وطعامهم لكي يكون أجره عند الله عظيماً. لكن كان بجانب المسجد سيدة فقيرة وعجوز تقوم بتربية أولاد أيتام، كانت هذه العجوز تملك بقرة تسترزق من حليبها، كانت كل يوم تخرج إلى المسجد ومعها ما زاد من الحليب وتقول:

((يارب .. خلقتني فقيرة لا أقدر أن ابني مسجداً كهذا، يا رب أنا لا أملك في الدنيا سوى هذا الحليب، يا خالقي تقبلّه مني صدقة في بناء هذا المسجد)).

ثم تأتي إلى العمال وتقدّم لهم الحليب، لكنهم يرفضون ويقولون لها إن الأكل لديهم كثير، ويرجونها أن تذهب بالحليب إلى الصغار، لكنهم بعد إصرارها يقبلون حليبها الطازج. وفي يوم من الأيام جاء السلطان سليمان وأستدعى مسوؤل العمال وقال له:

((هل هناك أحد يقدّم لكم المساعدات أو الطعام أو يساعدكم ببناء المسجد؟)).

فقال المشرف:

((لا يا سيدي فكامل ما نحتاج نأخذه من المخصصات، هل سمعتم شيئاً يا مولاي فأقوم بالتأكد من العمال؟)).

أخذ السلطان يهز رأسه مبدياً استغرابه وكأنه لا يصدق ما قاله المشرف. وبعد قليل قال المشرف:

((نعم ..نعم ..يا مولاي هناك إمرأة عجوز تقدم لبعض العمّال القليل من الحليب يومياً، ولا تنصرف إلّا بعد أن يشربوه)).

تبسم السلطان وغادر المكان، وعندما سأله أحد وزرائه عن القصة، قال:

((لقد حلمت ليله أمس أنني أقف أنا وسيده عجوز ليله الحساب، فتحصل على أجر أكثر مما حصلت أنا عليه في بناء المسجد، فقلت لها: ماذا قدمت؟ فقالت: كوب من حليب)).

ثم توقف السلطان عن المسير ونظر خلفه إلى المسجد وقال وهو يبتسم:

((تلك العجوز بنت السليمانية بكوب من الحليب)).

نرجيلة في المسجد

كان السلطان سليمان كثير التفقد لأعمال بناء مسجد السليمانية، فيشاهد بنفسه كيف تسير أعمال البناء، ويقف على النواقص وطلبات المشرفين وينفذّها سريعاً ويبدي أحياناً ملاحظاته حول بعض الأمور. خلال فترة البناء التي استمرت سبع سنوات؛ سوف نذكر منها هاتين الحادثتين.

لاحظ السلطان خلال عملية البناء بأن العمال يقومون بإجهاد الحيوانات في نقل الحجارة ومواد البناء، فأصدر مرسوماً سلطانياً يحدد ساعات عمل لكل حيوان وتحديد الوزن الذي يستطيع أن يحمله، ويخَالَف من يحمل على حيوان أكثر من طاقته. وزِّعَ هذا المرسوم على كامل المدينة وليس فقط على عمّال السليمانية، ليكون بذلك هذا المرسوم أول قانون في العالم يُسَن لحقوق الحيوان.

أمّا الحادثة الثانية فهي عند اقتراب الاكتمال من بناء المسجد دخل السلطان كالعادة فوجد سنان أغا يدخن نرجيلة في صحن المسجد، غضب السلطان كثيراً من هذا التصرف الغريب، وعندما لاحظ سنان السلطان وهو قادم نحوه وعليه علامات العصبية، قام على الفور وأخذ يشرح للسلطان قبل أن يسأله عن سبب التدخين. فقد

كان سنان يقوم بالتدخين داخل المسجد وينفخ الدخان للأعلى من أجل مراقبه حركة الدخان والتأكد من نظام التهوية[1] المعقد الذي أخترعه في هذا المسجد.

يعقوب القرماني

تأخر نزول المطر في إحدى سنوات حكم السلطان سليمان القانوني في استانبول وضواحيها، اشتكت الناس والعامة وأخذت تظهر علامات الخوف من انحباس المطر والقحط، فأمر السلطان سليمان الحكومة والوزراء والعلماء والشيوخ والأطفال والنساء والفقراء للاحتشاد في الساحات العامة والخروج لصلاة الاستسقاء، وأستدعى شيخ الإسلام أبي السعود أفندي وأخبره بذلك وطلب منه أن يكون هو من يصلي بالناس. أعتذر أبي السعود وقال:

((خيراً فعلت يا مولاي.. لكن يجب أن تُحسن اختيار من يصلي بالناس هذه الصلاة الهامّة، وهناك من هو أفضل مني بكثير بالعلم وصدق النيّة، لذلك أعذرني فانا أختار أن أكون بين الناس)).

وبعد محاولات السلطان بإقناع شيخ الإسلام إلّا أنه أصرّ على عدم أهليته للصلاة. فقال السلطان:

((ان كنت لا تريد ذلك فليكن الشيخ يعقوب)).

فأرسل السلطان أحد رجاله إلى يعقوب وقال له أن السلطان اختاره للصلاة بالناس في صلاه الاستسقاء التي حدّدها. إعتذر يعقوب للرسول وأخبره برفضه لهذا التكليف، وهرب يعقوب وتوارى عن الأنظار. كان يعقوب عالماً شهير ومتواضع

1 أدخل سنان أغا وطور اسلوب التهوية في المسجد, فقد هيأ منافذ خاصة تفتح للداخل أو للخارج بهدف تنقية الهواء بسهولة وفتحات صغيرة تحت القبة في اتجاهات متنوعة تضمن تياراً صاعداً يجذب وراءه الدخان المتصاعد من قناديل الزيت التي كانت تستخدم لإضاءة المسجد, كما استطاع استغلال هذا السخام الذي ينشأ من الدخان في صنع حبر للكتابة.

جداً، لا يأكل ولا يشرب إلّا ما يقوّيه على العبادة وشؤونه اليومية، زاهد وكثير الورع ومن الشيوخ المشهورين والمحبوبين بين سكان اسطنبول، لكنه كان قليل الظهور ولا يحب الشهرة. هرب يعقوب واختفى لكي يبتعد عن المسؤولية، فقال له إبنه يوسف:

((يا أبي لما تهرب والناس بحاجه إليك ؟، أليس أمر السلطان من أمر الله؟ فلم تخالف أمر الله؟)).

سكت يعقوب وطأطأ رأسه وقال: ((سمعنا وأطعنا)).

وفي يوم الصلاة لم يبق أحد إلا وخرج للصلاة، السلطان والوزراء، العلماء، الناس، الأطفال والمرضى، حتى إن الناس أخرجت الحيوانات. تقدم يعقوب بلباسه المتواضع البسيط وصلّى بالناس وأخذ يدعو الله بالرحمة ويبكي حتى بكى كل الحاضرين، كان جواً مليئاً بالإيمان والخشوع.وما هي إلّا ساعات حتى تشكلت الغيوم السوداء، ولم ينتهي اليوم حتى سقطت الأمطار بغزارة.

الرؤيا التي أمرت القانوني بالجهاد

نحن الآن في عام 1566 والسلطان سليمان يتجهز لحملة كبيرة على النمسا سميت لاحقاً بحملة زكتوار. كان السلطان قد تجاوز 72 عام من عمره وكان مريضاً جداً ولا يقوى على المشي، وتردّد في أن يخرج لقيادة هذه الحملة أو يتركها لأحد القادة.

في إحدى الليالي جاء العالم والشيخ مصلح الدين أفندي إلى القصر لمقابلة السلطان، لكن الحرس رفضوا ذلك لتأخر الوقت ولمرض السلطان الشديد، لكن إصرار الشيخ جعل الحرس يخبر السلطان الذي أمرهم بإدخال الشيخ في الحال. دخل الشيخ على السلطان وبعد فترة من الحديث قال الشيخ:

((يا سلطاننا.. لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنام، إنه يقرئك السلام ويقول لك: لماذا تركت الجهاد يا سليمان؟ جهز خيول الإسلام وحارب الكفّار)).

وقف السلطان ودموع الفرح تنزل من عينيه وأخذ يحمد الله ويستبشر ويقول:

((السمع والطاعة يا رسول الله.. السمع والطاعة يا رسول الله)).

وبالفعل خرج السلطان سليمان للحرب للمرة الأخيرة في حياته، ورغم أنه كان مصاباً بالمرض ولا يقو على الحركة إلّا أنه خرج مع جيشه محمولاً على نقّالة، يقود الجيش ويضع الخطط وهو في نقالته، وفي طريقهم كان رحمه الله كثير الصلاة والدعاء للمسلمين بالنصر، ويقول:

((يا رب ... أريد الشهادة في أرض المعركة، أريد أن أموت غازياً كأجدادي وليس على الفراش)).

وصل الجيش العثماني لأرض المعركة وسحق الأعداء وانتصر عليهم، وصل خبر النصر لخيمة السلطان وهو نائم على فراش الموت، فابتسم وحمد الله وخرجت روحه الطاهرة إلى خالقها، ولمّا أعيد جثمانه الطاهر إلى اسطنبول خرج الناس للصلاة عليه، وكان ممن صلى عليه وهو يبكي الشيخ الجليل مصلح الدين أفندي.

الراهب والجنود العثمانيين

كان النظام والطاعة التي يتمتع بها الجيش العثماني محل إعجاب كل ملوك أوروبا والعسكريين الغربيين الذين عاصروا الدولة العثمانية زمن القوة. لكن القصص التي تتكلم عن أخلاق الجيش والتربية الإسلامية الصحيحة التي تمتع بها تكاد تكون قليلة . في هذه القصة التي سنذكرها نبين مدى تأثر هذا الجيش بتلك الأخلاق الإسلامية التي تربى عليها.

أثناء الحروب العثمانية الأوروبية زمن السلطان سليمان القانوني خرج الجيش بقيادة السلطان لمواجهة بعض الجيوش الصليبية المتجمعة. في الطريق وبالقرب من بلغراد خيم الجيش في منطقه فيها عيون ماء لمدة يومين، وكان بقرب تلك العيون دير

لقس مسيحي. هذا الراهب كان يريد ان يكتب رسائل للجيش الصليبي عن أحوال الجيش العثماني وعدده وعتاده. وأخذ يراقب الجيش عن قرب ومن خلال صومعته العالية، فكتب عن لباسهم وعددهم والأسلحة التي يحملونها وأعجب كثيراً بالتنظيم والنظام في الجيش العثماني وأراد في النهاية أن يختبر الجنود. فأمر بعض الراهبات بالتبرج قليلا والذهاب لعين الماء عند الجند، ومحاولة التحرش بهم وهو يراقب من الدير.

لكن قبل أن تصل الراهبات إلى عين الماء ترك الجنود كل ما في أيديهم وتركوا الماء وابتعدوا لمسافة طويلة وأعطوا ظهورهم للراهبات ولم يعيروهن اهتماماً. ولم يعودوا إلّا بعد أن ذهبت الراهبات.

صُعق الراهب من هذه الأخلاق وكتب برسالة لقائد الجيش الصليبي قال فيها:

((أنكم سوف تواجهون جيشاً ليس كباقي الجيوش بالعدد والعدة والنظام والأخلاق، إنهم لا يحبون الحياة والنساء والمال، ويقاتلون من أجل دينهم ووطنهم، إنهم يحبون الموت ويمتثلون لأمر قائدهم. والنصر على جيش كهذا مستحيل)).

الصندوق

عندما توفي السلطان سليمان في معركة زيكتوار، نُقل جثمانه الطاهر إلى اسطنبول، وكان قد أوصى بالكثير من الوصايا إلى أبنائه ورجال الدولة، أمّا أكثر تلك الوصايا غرابة فهو الصندوق الخشبي ألذي أمر بدفنه معه. كان الشرع الإسلامي يحرّم أن يُدفن أي شيء مع الميت من أموال ولباس وذهب وزينة لان في ذلك إسراف وتخريب، فتحيّر العلماء في تنفيذ هذه الوصية، وقرروا فتح الصندوق والتأكد من محتواه فإن كان فيه مال أو ذهب لا يدفنوه ولا ينفذّوا تلك الوصية، فاجتمع العلماء وكان منهم شيخ الإسلام أبي السعود أفندي وفتحوا الصندوق، كان منظراً اقشعرت له أبدانهم، فالصندوق لا يحوي المال أو الذهب ولا الجواهر، بل كان مليئا بالفتاوى

التي سيّر بها الدولة خلال حكمه، أخذها لكي تكون حجّه له على أعماله، فأخذ العلماء ومن ضمنهم أبي السعود بالبكاء وقالوا:

((أنقذ السلطان نفسه.. أنقذ السلطان نفسه)).

الدولة العثمانية تعيّن ملوك العالم

كانت الدولة العثمانية في عصرها الذهبي لا يقتصر نفوذها على الولايات والأراضي التي تحكمها فقط بل كان يمتد إلى أقصى الشرق والغرب، ومن ذلك أنه في عام 1570 مات ملك بولونيا " بولندا " ولم يكن هناك من يخلفه من الورثة على العرش، فطمعت الدولة الغربية في عرش بولونيا وأراضيها الواسعة وقررت أوروبا مجتمعة تعيين أحد الموالين لها من عائلة هابسبورغ[1] وذلك لأن بولونيا كانت تحت الحماية العثمانية. رفض السلطان سليم الثاني[2] ذلك، لأنه في حال تحققه سوف ينشئ دولة كبيرة متحدة مع ألمانيا والنمسا معادية للدولة العثمانية. واستطاع السلطان بقوته ونفوذه داخل أوروبا من تعيين شقيق ملك فرنسا هنري دي فالوا التابع للدولة العثمانية على عرش بولونيا، غادر هنري مسرعاً إلى بولونيا وأجتمع هناك بأمراء بولونيا وقرأ عليهم خطاب السلطان سليم الذي يكلفه بحكم البلاد، جاء في هذا الخطاب:

((إستناداً إلى أمرنا الشريف، عينّنا ونصّبنا شقيق ملك فرنسا ملكا على ولاية بولونيا، أتفضّل عليكم أنتم يا أمراء بولونيا أن تقبلوا بالإجماع الملك المشار إليه عند

---

1 ويشار إليهم أحياناً باسم آل النمسا, أحد أهم العائلات المالكة في أوروبا, وتشتهر كونها مصدر الأباطرة المنتخبين رسمياً لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. تميزت علاقاتهم بالدولة العثمانية بالعداء طيلة فترة حكمهم تقريباً, وخاضوا الكثير من المعارك ضد الدولة العثمانية عُرفت بين المؤرخين باسم الحروب العثمانية الهابسبورغية.

2 السلطان سليم بن سليمان القانوني 1566-1574, هو السلطان الحادي عشر, تميزت فترة حكمه بالحروب البحرية.

قدومه. وفي حال خالفتم أمري الشريف، لـن يقبـل مـنكم أي عـذر وسـتتحملون نتيجـة ذلك)).

تلقى الملك الجديد التهاني والتبريكات من الأمـراء كلهـم بعـد أن ألقـى الخطـاب على مسامعهم دون أن يجد أي معارضة.

شمسي باشا والسفارة الإيرانية

لمـا تـوفي السـلطان سـليمان القـانوني، تـولى عـرش السـلطنة العثمانيـة والخلافـة الإسلامية ابنه السلطان سليم الثاني. جاءت السفارات من كل أنحاء العالم تحمـل الهـدايا للسلطان الجديد، وكان ممن جاء سـفارة إيـران التـي تعتـبر في ذلـك الوقـت ألـد أعـداء الدولة العثمانية وثاني قوه بالعالم. كانت السفارة الإيرانية ضخمه جداً، تتكـون مـن 700 دبلوماسي وأمير إيراني وعسكري يركبون 1700 حصان مـن أجـود الخيـول. والهـدف مـن هذه السفارة الضـخمة هـو تخويـف السـلطان الجديـد. عـرِف السـلطان سـليم بقـدوم السفارة الجديدة قبل ان تصل، وعرف المغزى منها، فأمر على الفـور شـمسي باشـا وهـو أحد الوزراء العثمانيين والعسكر الناجحين وهو عربي الأصل ومن نسل سيدنا خالـد ابـن الوليد رحمه اللـه، أمرة السلطان بأن يستقبل الوفد الإيراني بغلظة وباستعراض عسكري مهيب ترتجف منه قلوبهم. وبالفعل قـام شـمسي باشـا باختيـار مئـات الجنـد وألبسـهم أفخر أنواع الألبسة والأسلحة حتى أن بعض الأسلحة كانت من الـذهب والفضـة. وعنـد قدوم الوفد الإيراني قام شـمسي باشـا باسـتقبالهم بهـذا الاسـتعراض العسـكري. خُلعـت قلوب الوفد من النظام والشدة والمهابة التي يتمتع بها الجنـود العثمانيـين، لكـن رئـيس الوفد الإيراني أبتسم وأخفى انبهاره والتفت إلى شمسي باشا وقـال لـه محـاولا السـخرية من الاستعراض:

((هل هذا استعراض أم حفل زفاف ؟!)).

فأجابه على الفور شمسي باشا:

((لا يا سيدي... هذا حفل زفاف وهؤلاء العرسان عروسهم هي جالديران)).

وجالديران هي معركة حدثت بين العثمانيين وإيران سُحقت بها كل الجيوش الإيرانية وفرّ شاه إيران بأعجوبة من القتل. صُعق الوفد الإيراني من حدة الجواب وسرعه البديهة لشمسي باشا، وبعد الاستعراض أخبر الوفد إنما هدفهم هو فقط استكمال الصلح بين البلدين.

الجيش العثماني يدخل موسكو ويحرق الكرملن

كان ايفان الرابع ملك روسيا ذو نظرة توسعية كبيرة، وقد ارتكب الكثير من المجازر والغزوات ضد المسلمين واحتل إقليم استراخان في المناطق التابعة للقرم، شكّل هذا التصرف تحدياً للدولة العثمانية المسؤولة عن المسلمين في كل مكان.

أعلن السلطان سليم الثاني الحرب على روسيا التي أخذت ترسل السفارات إلى اسطنبول لعقد صلح يجنّبها الحرب، لكن إصرار السلطان على تأديب روسيا جعله يرسل حملة كبيرة من القوات لتشارك قوات القرم بقيادة دولت قيراي، كان الجيش عظيماً بقدر غضب السلطان. سحقت القوات العثمانية القوات الروسية الضخمة التي لم تستطع الصمود أمام الغضب العثماني، وفي 24 من أيار 1571 دخلت الجيوش العثمانية موسكو مقر الروس وداست حوافر خيول المسلمين الكرملن[1] والقصور الروسية، وتم أخذ كنوز القيصر، كان مشهداً مذهلاً أصاب ايفان الذي فر بقواته داخل الغابات.

مكث المسلمون فترة في موسكو وأحرقوا الكرملن الذي يشكل اليوم أحد أهم أماكن صنع القرار العالمية. تجاهل السلطان سليم السفارات التي ترجوه بعقد الصلح بالشروط العثمانية وأرسل إلى دولت قيراي سيفاً مرصعا بالذهب وأعطاه لقب " تخت

1 مجمع من القصور في موسكو, بنيت في عهد القيصر الروسي إيفان الثالث, بقيت مكان إقامة القياصرة ومركز الحكم في العهد القيصري, وترمز الآن إلى القرار الروسي.

ألان " الذي يعني كاسب العرش. في العام الثاني للمعركة كُتبت شروط الصلح والاستسلام بشروط مهينة، ودفع جزية سنوية للدولة العثمانية مقدارها 60 ألف ليرة ذهب.

لم تقطعوا شيئاً أكثر من حلق لحانا

بعد الخسارة التي مُني بها اسطول البحرية العثمانية على يد اسطول التحالف الصليبي في معركة ليبانت[1] البحرية، طلب انطونيو بربارو سفير البندقية مقابلة الصدر الأعظم محمد صوقوللو باشا ليبدي غروره ويرسم معه سياسه الدولة تجاه بلاده. وجد هذا السفير من محمد صوقوللو ما لم يتوقعه من استعلاء وثقة، وعندما همّ السفير بالتحدث وقف له صوقوللو وقال:

((إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا، وترى أين هي. ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلائنا على قبرص كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره، وأمّا إيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تقطعوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، واللحية كما تعلم تنمو بسرعة وبكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين نبتت بهما في الوجه لأول مرّة)).

وبالفعل كان ما قال فالرجال أفعال، استطاعت الدولة بناء اسطول جديد بسرعة وبقوة اكبر مما كان عليه القديم، وتم استخدام ساحة قصر السلطان سليم الثاني كورشة أضافية في صناعة السفن لإنجاز المهمة سريعاً، الأمر الذي جعل البندقية تبادر بطلب الصلح ودفع الجزية.

1 معركة بحرية وقعت عام 1571 في عهد السلطان سليم بين الصليبيين والعثمانيين, وقد انتهت بهزيمة للعثمانيين

جامع السليمية

أوكَل السلطان سليم الثاني للمعماري الشهير سنان أغا بأن يبني له مسجداً جميلاً ورائعاً في مدينة أدرنة[1]، فبدأ سنان باختيار الموقع ثم باشر بالبناء كان هذا المسجد أعظم أعمال سنان أغا ويمثّل ذروة العمارة الكلاسيكية العثمانية. كانت قبته الضخمة أعظم من قبة أيا صوفيا وأكبر وهو ما قال فيه سنان:

((إن المسيحيين يقولون إننا متفوّقون على المسلمون، لأن عالم الإسلام يخلو من قبة ضخمة مثل أيا صوفيا، وكان لكلامهم تأثير قوي في قلب هذا العبد العاجز، لذلك بذلت الهمة العالية في بناء هذا الجامع، فأقمت قبة هذا الجامع أعلى من قبة أيا صوفيا بسته أذرع وأعمق بأربع أذرع)).

لم تكن القبة وحدها سر التفوق في هذا المسجد، فالدلالات التي تحملها المآذن الأربعة تفوق العجب والخيال بجمالها ورشاقتها، فداخل مئذنتين من هذه المآذن الاربع ثلاثة سلالم، كل سلّم يوصل إلى شرفة، فلو حدث وأن دخل ثلاثة رجال من الباب وتسلق كل واحد منهم سلم فسيصل كل منهم الى شرفة دون أن يشاهد كل منهم الآخر أو يتلاقوا، كانت هذه السلالم أحد الابتكارات الهندسية المعمارية التي أذهلت الكثير من الباحثين وعلماء الآثار.

ومن قصص وطرائف بناء هذا المسجد أنه لمّا تمت عملية البناء وقف سنان أغا على مسافة بعيدة وأخذ ينظر اليه، وكان بجواره أطفال صغار يلعبون، فقال أحد الصبية لرفاقه:

((إن تلك المئذنة مائلة وسوف تسقط))

سمِعهُ سنان أغا وقال له: ((عن أي مآذنه تتكلم ؟))

فقال الصبي: ((تلك الجديدة في اليمين يا سيدي)).

1 هي مدينة تقع في تركيا اليوم على الجانب الأوروبي, كانت عاصمة الدولة العثمانية قبل فتح القسطنطينية من أعوام 1370-1453. فتحت على يد السلطان مراد الأول.

تبسّم سنان وقال:

((أنا الذي بنيتها، ما رأيك أن تساعدني ونصلحها قبل أن تقع)).

فاستدعى سنان بعض العمّال وأمرهم بأن يربطوا المئذنة بحبل، وأخبرهم بأن يسحبوا المئذنة، وقال للصبي:

((الآن يا بني سوف يسحبونها، فعندما تصبح مستقيمة أرجوك أخبرنا)).

وبالفعل أخذ العمال بالسحب وهم مستغربون من هذا الطلب، وبعد لحظات صاح الصبي:

((هذا يكفي.. هذا يكفي .. لقد أصبحت مستقيمة الآن)).

فأنصرف الصبية وهم سعداء، استدعى سنان أغا العمال وقال لهم:

((أتدرون لمَ فعلت ذلك ؟، إن هذا الطفل لا يعلم ما يقول، هو فقط يلعب وكلامه هذا قد يكبر ويصبح إشاعة لتصبح المئذنة مائلة، لذلك يا سادة لقد قمنا بتعديل المئذنة قبل أن تسقط)).

انجلترا تحت الحماية العثمانية

تعرضت انجلترا لكثير من المضايقات والنفوذ الاسباني التي استمرت في تسلطها على كل الممالك الأوروبية لتنضوي تحتها، كان ذلك في عهد الملكة إليزابيث الأولى، الأمر الذي دفعها لإنشاء علاقات قوية مع عدو اسبانيا الأولى الدولة العثمانية، فأرسلت الرسائل والسفراء وكتبت رسالة إلى السلطان مراد الثالث تطلب منه العون والحماية كان ذلك عام 1580، وأرسلت المكاتيب حتى لشيخ الإسلام والصدر الأعظم ووالدة السلطان، وقالت في إحدى رسائلها إلى السلطان إن بلادها تعتنق الدين البروتستانتي وليس مثل اسبانيا الكاثوليكية التي تعبد التصاوير والتماثيل المحرمة في الشريعة الإسلامية، وذكرت أن بلادها قريبة جداً من الدين الإسلامي. كانت

تتوسل الملكة بأن يرسل السلطان 50 إلى 60 سفينة حربية على الأقل لحماية بلادها لأنها تعرف ما تأثير وجود هذه السفن. فلقد كان ملك فرنسا يقول للسفير الاسباني أن 200 سفينة عثمانية ستلبي نداءه بأمر السلطان إن هجمت اسبانيا عليه، وكان لهذا التهديد الأثر الكبير في حماية فرنسا. كما أرسلت سفيرها لقائد القوات البحرية قيلج علي باشا محمّلاً بالهدايا وركع أمامه وقبّل يديه. لكن ماذا كان رد السلطان على كل هذا الرسائل؟..

أتخذ السلطان قراره بحماية انجلترا ولو بالقوة وفتح باب التجارة معها لكي يقوي اقتصادها الهش، وكتب إليها رسالة قال فيها:

((إن أبوابنا دوماً مفتوحة، وأعتاب قصرنا ملجأ الضعفاء، ولكن أنتم أيضاً عليكم الانقياد والطاعة لأعتاب قصري، لتنالوا رحمتي)).

وبالفعل استطاعت هذه العلاقات من حماية انجلترا وازدهار تجارتها. ومن طرائف هذه العلاقات أن الملكة إليزابيث كانت تطلب من السلطانة صفية والدة السلطان مراد الثالث[1] أن ترسل لها مواد تجميل ومساحيق تنظيف البشرة، لأنها سمعت أن سيدات القصر تستخدم مثل هذه الأدوية غير الموجودة في انجلترا.

سلطان المسلمين عندما فاتته صلاة الفجر

كان السلطان مراد الثالث أحد سلاطين آل عثمان مشهورا بورعه وتقواه. وذات يوم فاتته صلاة الفجر، فلما أفاق لم يجد بدّاً من تأنيب نفسه بقصيدة هي أروع ما كتب في الأدب الإسلامي التركي، فلا زال الملحنين منذ ذلك اليوم يعكفون على تجديد تلحينها، ولا تزال الأوساط الصوفية ترددها باستمرار. فقد كان السلطان

1 مراد ابن سليم الثاني ابن سليمان القانوني1574-1595, هو السلطان الثاني عشر من سلاطين الدولة العثمانية. شهدت فترة حكمة ازدهار وبذخ وذروة القوة والنفوذ. وصلت الدولة في عهده إلى أقصى إتساع في تاريخها.

مراد الثالث شاعراً كعدد آخر من السلاطين العثمانيين، وقد كتب قصائده باللغات التركية والعربية والفارسية. كتب قصيدته التي يؤنب فيها نفسه باللغة التركية وتحت عنوان "استفيقي يا عيني"... وهي خماسية، وتتكون من خمسة مقاطع ينتهي الشطرين الأخيرين من كل مقطع بنفس العبارة... ومعاني القصيدة كما يلي:

استفيقي يا عيني من الغفلة استفيقي.

استفيقي يا عيني التي كثر نومها استفيقي.

صدّقيني إن عزرائيل قد يسلب الروح.

استفيقي يا عيني من الغفلة استفيقي.

استفيقي يا عيني التي كثر نومها استفيقي.

****

تستفيق الطيور عند الفجر.

وبلغتها تبدأ التسبيح.

والجبال توّحد وكذا الأحجار والأشجار....

استفيقي يا عيني من الغفلة استفيقي.

استفيقي يا عيني التي كثر نومها استفيقي.

****

تفتح أبواب السماوات.

وتنزل الرحمة على المؤمنين.

ولمن قام الفجر تعطى الحلّة....... ـ أي حلة الجنة ـ .

استفيقي يا عيني من الغفلة استفيقي.

استفيقي يا عيني التي كثر نومها استفيقي

****

هذه الدنيا فانية فحذار أن تنخدعي.

وإياك أن تغتر بالتاج والكرسي.

ولا تفتخري أن يكون العالم تحت سلطتك.

استفيقي يا عيني من الغفلة استفيقي.

استفيقي يا عيني التي كثر نومها استفيقي.

****

إنه أنا (يا رب)، عبدك مراد، اغفر لي ذنبي.

اغفر لي ذنبي، وارفع عني خطيئتي.

واحشرني تحت لواء الرسول.

استفيقي يا عيني من الغفلة استفيقي

استفيقي يا عيني التي كثر نومها استفيقي

عثمان اوزدمير

عثمان بن اوزدمير أشهر الساسة والعسكريين في القرن السادس عشر أن لم يكن أشهرهم خلال تاريخ الدولة العثمانية. برز بانتصاراته الساحقة وإتمام المهمات الموكلة إليه بنجاح رغم صعوبتها. كان شديداً في المعارك، خلوق ورزين، صاحب موقف وشجاع إلى أبعد حد. كان رحمه الله كثير الحرص والدراية في أمور الحكم، تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان مراد الثالث. لقي تكريماً قل نظيرة من السلطان، أحبه الشعب لدرجة تجاوزت ربما السلطان نفسه.

في عام 1584 دخل عثمان إلى اسطنبول واستقبله الشعب بالشوارع بعد أن سمعوا بانتصاراته المدوية في اليمن والحبشة والقرم وداغستان، أمّا السلطان فاستقبله في قصر " يالي كشك " وأجتمع به منفرداً زهاء أربعة ساعات، وبعد عشرين يوم تم تعينه صدراً أعظم. لم يطل به المقام في إسطنبول، فخرج بجيوش ضخمة لتأديب إيران. وُدّع بمظاهرات عارمة وضخمة من الشعب الذي خرج عن بكرة أبيه لتوديع بطل الدولة، ولقد وصف الشاعر حريمي يوم خروجه بهذا البيت:

((هكذا امتلأت الشوارع بالعوام والخواص، لو رميت إبرة ما سقطت على الأرض من كثرة الأشخاص)).

ساءت حالته الصحية خلال هذه الحملة. كان يتمتم وهو مريض " أين أنت يا تبريز؟ "، ولم يستطع ركوب جواده العربي الأسود " قرة قايتاس " ذو الشهرة العالية بين الجنود العثمانيين. استطاع رغم مرضه من دحر الجيوش الصفوية ودخول عاصمتهم تبريز. أقام فيها فترة وصلّى بأكبر جوامعها صلاة الجمعة على الأصول السنيّة. توفي رحمه الله أثناء عودته إلى إسطنبول مظفراً منتصراً في ليلة 29 أكتوبر من عام 1585، وضِع نعش عثمان باشا على جواده " قرة قيتاس " الذي كان يمتطيه طوال 30 عاماً، مع وضع السرج بالمقلوب[1]، ودفن في ديار بكر وفقاً لوصيته. عثمان الشركسي الأصل من عائلة الشابسوغ[2] العريقة وأخواله العرب العباسيين، توفي تاركاً خلفه زوجة وإبنة وشعب كامل بكى بشدة عند سماعة خبر موته.

معاهدة من ذهب

تأزمت العلاقات بين الدولة العثمانية وإيران عام 1578 بسبب أطماع إيران وعدم التزامها بالمدفوعات المالية للدولة العثمانية، إضافة إلى الكم الهائل من السخط الشعبي في اسطنبول من تصرفات إيران ضد أهل السنة. أُعلِنت الحرب على إيران التي استمرت أكثر من عشر سنوات، كانت من أشد الحروب وأقواها بين أعظم دولتين في ذلك الزمان، كان سماع أخبار الانتصارات على الجبهة كفيلة بأن تجعل اسطنبول لا تنام من الفرحة، وأخذت تنتشر قصص الأبطال على الجبهة بين العامة وبطولات عثمان اوزدمير باشا الذي سحق كل الجيوش الصفوية، انتهت المعركة بعد أن دخل اوزدمير باشا تبريز عاصمة الصفويين.

أعلنت إيران الاستسلام ورغبتها بالصلح، فذهب وفد كبير ترأسه ولي العهد

1 تعتبر عادة وضع السرج بالمقلوب عند موت صاحبه من العادات التركية القديمة, كدلالة على الوفاء لصاحب الفرس. وقد انتقلت هذه العادة وأصبحت من مراسيم دول كثيرة غير تركية.

2 من العائلات الشركسية المعروفة, هاجر قسم كبير منها خلال الحروب الشركسية الروسية, وتم توطينهم على سكة حديد الحجاز في الأردن. كما أنه عباسي من جهة الأم حيث كانت والدته حفيدة أحد الخلفاء العباسيين.

الإيراني حيدر ميرزا إلى اسطنبول من أجل إنهاء الحرب وتوقيع شروط الاستسلام. وعند وصولهم اسطنبول خُصِصَ لولي العهد قصر برتو باشا، خرجت اسطنبول عن بكرة أبيها لرؤية هذا المشهد الاستسلامي، ومن شدة الزحام كان يمشي الوفد ببطء شديد لدرجة أن ولي العهد الايراني وصل القصر بعد العِشاء. إستقبل السلطان الوفد بعد أيام، وسمح لولي عهد إيران بتقبيل يده الذي ألقى خطاب طويل جاء فيه:

((إن مليكي شاه إيران يجر عرشه تحت سيادة السلطان))

كُتبت المعاهدة التي سميت بمعاهدة اسطنبول، كانت قمة التفوق العثماني، واعترفت إيران بأنها دولة أقل من العثمانية لأول مرة في التاريخ. ومما جاء في هذه المعاهدة؛ اعتراف إيران بكل الفتوحات العثمانية، والخضوع للقيادة الدينية للعثمانيين والاعتراف بأن السلطان هو خليفة كل المسلمين سنة وشيعة، كما تعهدت إيران بمنع وعدم سب الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وكل رموز السنة، وعدم التضييق على أهل السنة. واعتبرت الدولة العثمانية أن سبّ أي صحابي يعتبر إعلان الحرب على الدولة العثمانية، ولكي تلتزم إيران بهذه المعاهدة أبقى السلطان أبن عم الشاه عباس كرهينة في اسطنبول.

هاجوفا التي أبكت ألمانيا والبابا

تعتبر هذه المعركة من اكبر المعارك العثمانية واشدّها على الإطلاق، جرت بين الدولة العثمانية بقياده السلطان محمد الثالث[1] وبين ألمانيا تساندها بعض دول أوروبا بقياده ماكسيمليان أخ إمبراطور ألمانيا. ومع أن القوات العثمانية تقدر ب 150 ألف مقاتل إلّا أن القوات الأوروبية فاقتها بكثير. جرت المعركة عام 1596 واستمرت ما

1 هو السلطان الثالث عشر من السلاطين العثمانيين تولى الحكم بعد وفاة والده السلطان مراد الثالث 1595-1603. من سماه محمد هو والد جده السلطان سليمان القانوني. فعندما بُشّر السلطان القانوني بأن حفيده مراد أصبح والداً, قال لمراد الثالث: " إن كل مراد في دولتنا ينجب محمد " في إشارة للسلطان محمد الفاتح ووالده مراد الثاني.

يقارب ثلاثة أيام. ولكثره وقوه الأعداء بدأت القوات العثمانية بالتقهقر وبـدأت القـوات الأوروبية تخترق العمق، حتى كادت أن تصل للسلطان.

في هذه الأثناء الحاسمة نزل السلطان محمد الثالث عن جواده، وكان يلبس ثوب سيدنا محمد عليه السلام وماسكا رمحه الشريـف أيضاً وأخـذ بالصـلاة والـدعاء لجـيش المسلمين والنصر لأمة سيدنا محمد.

في هذه الأثناء دخـل عليـه الصـدر الأعظـم والقـادة العسـكريين وقطعـوا صـلاته واخبروه بوجوب الانسحاب فـوراً، لان المعركـة انتهـت بالخسـارة، ويجـب تـأمين خـروج السلطان بأسرع وقت ممكن.

وبالفعل ركِب السلطان حصـانه اسـتعداداً للانسـحاب، وقبـل أن ينسـحب دخـل عليه مربيه وشيخه خوجة سعد الدين أفندي وامسك بلجام حصـان السـلطان وقـال لـه بحرارة:

((إن الجيش الـذي لا يـرى السـلطان في مكانـه يتشـتت، وإن الحـرب مـا زالـت مستمرة وليس هناك هزيمة. وان روح رسول الـلـه تنظر إلينا)).

دبّت الكلمات الرائعة الحماسة داخل السلطان وخالف كل العسكريين في خطـوة خطيرة جداً، ودخل المعركة على جـوادهِ يتقدمـه الشـجاع خوجـة سـعد الـدين ممسـكاً بلجام حصان السلطان. لم تتمالك القوات العثمانية نفسها عندما شاهدت البادشـاه بـين صفوفها. وأخذت تقاتل قتال أدهش الألمان والأوروبيين الـذين بـدءوا بـالتراجع. انقلبـت المعركة خلال ساعات شديدة من القتال، وتشتت جيوش الأعـداء وقُتِـل مـنهم 50 ألـف كما قُتِل بالمستنقعات 20 ألف ، لدرجة أن الجثث تكدست فوق بعضها.

عمّت الفرحة الجيش والسلطان بهـذا الـنصر الكاسـح، ولم تـنم اسـتانبول مـن الاحتفالات لدى قدوم الجيش وسلطانهم، ووزّعَ الأهـالي الحلـوى بالطرقـات، لدرجـة أنه تم شراء ثلاث سفن سكر من مصر. هذا الانتصـار جـاء بسـبب شـجاعة السـلطان وشيخه خوجـا سـعد الـدين أفنـدي والأبطـال الـذين قـدموا أرواحهـم فـداءً لـدينهم

ودولتهم.

الطباخ حسن جولاق

كان حسن فتى شجاع وكان يرغب دوما في أن يكون انكشارياً في الجيش العثماني لكن تم اختياره ليكون مساعد طباخ في القصر السلطاني، في عام 1595 أعلنت الدولة الحرب على ألمانيا وكانت حملة ضخمة جداً فالسلطان محمد الثالث سوف يقود الجيش بنفسه. ورغم محاوله حسن بأن يكون ضمن صفوف الجيش كطباخ إلّا أنه تم استبعاده بسبب عاهة في رقبته. في هذه الإثناء يمر العالِم الشهير خوجة سعد الدين وهو أحد مربي السلطان بالصدفة من الحديقة بجانب غُرف الخدم، ويسمع صوت نحيب وبكاء يملأ الحديقة. يتبع الشيخ البكاء ويصل إلى حسن، يطرق الباب ويدخل عليه. فقال له:

((ماذا يبكيك يا بني ؟)).

أخذ حسن يمسح دموعه ويقول: ((لا شيء يا مولانا)).

فقال له الشيخ:

((لا تخفي السبب، قل لي لعلى أساعدك يا بني)).

فقال حسن وهو يبكي:

((لن أصبح انكشارياً بعد اليوم، ولن أكون حتى طباخاً أقدّم الطعام للجيش، ولن أشارك الجيش شرف القتال والجهاد. كل أصحابي ذهبوا إلى المعركة إلّا أنا)).

أخذ الشيخ سعيد يواسيه ويقول له:

((سوف تشترك يوما... لكنك تعلم يا بني أن الجيش لا يحتوي المقاتلين فقط، فهناك الآلاف من العمّال والطباخين... الخ. وكل هؤلاء يشكل الجيش ويجب إن يكونوا يداً واحدة، ولا يسمح أن يكون هناك شخص واحد غير كفؤ)).

ثم صمت الشيخ قليلا وقال سوف تذهب إن شاء الله وسوف اخبر السلطان. لم يتمالك حسن نفسه من الفرحة واخذ يقبل يد الشيخ. انطلق الجيش بقيادة السلطان

محمد وكان من المشاركين بطلنا حسن الذي يعمل دون كلل في المطابخ العسكرية والسعادة تملؤه. جرت المعركة عام 1596 واستمرت ما يقارب ثلاثة أيّام. كان بطلنا يخرج دوماً من خيام المؤن والطبخ ويراقب المعركة. ولكثرة وقوة الأعداء بدأت القوات العثمانية بالتقهقر وبدأت القوات الأوروبية تخترق العمق وبدأت حتى قوات الحماية بالتقهقر والانسحاب، وشارفت قوات الأعداء إلى الوصول لخيمة السلطان. تحت هذه الأحداث يركض حسن إلى خيام الطباخين، فيقول بصوت مرتفع وهو يلهث:

((أتركوا عملكم وقوموا ودافعوا عن دينكم وإسلامكم والسلطان، إن الكفار وصلوا لخيمة خليفة المسلمين، لا تجلسوا مكتوفي الأيدي)).

فدخل وأخذ سكينا وفأس، وقال:

((أنا ذاهب للقتال ومن كان يريد ذلك فليتبعني)).

أثار هذا الموقف حماسة كل العمال والطباخين الذين لحقوا ببطلنا حسن بالسكاكين والخشب والقدور. وصل الأبطال لمكان السلطان وقاتلوا الألمان قتالاً رهيباً، وبعد مدة استطاعت التعزيزات التي وصلت من طرد الأعداء ورد الهجوم. لكن حسن كان مثخناً بالجراح وأخذ يمشي الى مكان السلطان ولما وصل لخيمة السلطان سقط أمامها وقال آخر كلامه:

((الحمد لله أن الكفار لم يصلوا ويدنسوا خيمة السلطان)).

استشهد بطلنا حسن بعد هذه الكلمات، وحقق أمنيته بالشهادة وأن يكون انكشاريا بطلا وشهيدا.

ترياكي حسن باشا

خلال الحروب العثمانية النمساوية الأوروبيـة ألكـبري في أواخـر القـرن السـادس عشر، استطاعت بعض القوات العثمانية التقدم في الداخل الأوروبي والاستيلاء على قلعـه ناجيكانيزسا في المجر. أوكِلَت القلعة للبطل العثماني ترياكي حسـن باشـا وبرفقتـه 7 آلاف جندي عثماني فقط. شكل هذا التقدم صدمه لأوروبا فسارع فرديناند الثاني مع 50 ألـف جندي نمساوي لاستعاده القلعة وحاصرها من كل الجهـات. ضربَ البطـل تريـاكي حسـن أروع الأمثلة بالصمود والدفاع المستميت هو ورفاقه، واستطاع تكبيد القوات النمسـاوية 18 ألف قتيل كما تم غنم بعض المدافع. يقول البطل تريـاكي حسـن باشـا لما سُـئل عـن سبب الانتصار:

((إن سر انتصارنا يعود لأربعة أسباب..

الصبر، فبالصبر صمدنا ونلنا الانتصار.

المثابرة، فتعهدنا مع انفُسِنا وفعَلنا قُصارى جهدنا.

الطاعة للقائد، فبها عمِلنا كفريق واحد.

حُب الـلـه وحب سيدنا محمد صلى الـلـه عليه وسلم، وحُبنا لبعضنا.

بهذه الأمور فقط نستطيع أن نظل ننتصر دوما بمشيئة الـلـه)).

لا يوجد مفرّ

كانت الأوبئة وأمراض الطاعون أكثر انتشاراً في المدن منها في القرى والأرياف، لذلك كانت تحدث كثيراً في مدينة اسطنبول وسائر المدن الكبرى. في بداية عهد السلطان أحمد الأول حدث طاعون في المدينة، وكان هناك رجل عُرِف بشدة حرصه وخوفه من أن يُصاب بالمرض. لذلك كان يتّخذ كل إجراءات السلامة، فكان مثلاً لا يزور المرضي ولا يمشي حتى خلف الجنائز، ويبتعد عن التجمعات والأسواق، حتى أنه صار خبر الناس ومحل كلامهم. ومن شدة حرصه حدث مرّة أن مات عنده أحد الخدم بالطاعون ولمّا علِم بذلك أحضر أناس ليحملوه ويدفنوه، واستأجر عامل بناء وأغلق غرفة الخادم للأبد، ومع كل هذا الحرص مات صاحبنا بالطاعون، فسبحان الله.

عزيز محمود خدائي

يعتبر العلامة عزيز محمود خدائي[1] من أشهر علماء عصره في التفسير والحديث والفقه، إضافة إلى ذلك فهو شاعر، وملحن، ومفكر إسلامي. ولد رحمه الله في اسطنبول وهناك تلقى تعليمه. ارتقى في طلب العلم. عمل قاضياً في مصر، وادرنة، والشام، وبورصة. ورغم شهرته العالية وعلمه الغزير إلّا أنه أراد أن ينسحب من هذه الدنيا إلى العلم والزهد والتعبد.

وفي أثناء عمله في بورصة كقاضي سمع بوجود عالم ودرويش زاهد جداً، كان هذا العالم هم محمد محي الدين أفتاد[2]، معلم ومدرب في السلوك والإحسان، عمل كمؤذن لمسجد بورصة الكبير. قرر القاضي عزيز خدائي أثناء صراعه الفكري من

1 عزيز خدائي حسب بعض المصادر, وذكرته مصادر أخرى باسم عزيز هدائي.

2 لا توجد معلومات كافية حول هذا العالم أو اسمه الصحيح الذي ربما كان لقب أو تُرجم خطأ من المصادر العثمانية.

الذهاب إلى مدرسة هذا العالم.

دخل القاضي عزيز إلى المدرسة فوجد شيخاً كبيراً بالعمر يـزرع ورداً في الحديقـة، فسأله:

((أين الشيخ أفتاد ؟)).

لم يعر العجوز القاضي أي اهتمام، استغرب القاضي عزيز وقال مرة أخرى:

((أريد الشيخ، أين هو ؟)).

وقف الشيخ العجوز وقال بصوت هادئ وعذب:

((أنا الشيخ يا حضرة القاضي.... لا بد أنك جئت إلى المكان الخاطئ، فهذا المكـان ليس للنزهة واللباس الفاخر الذي ترتديه، هذا مكان الفقراء إلى الـلـه، هذا المكان لـيس فيه مكان للمال أو الشهرة والجاه والسلطان)).

أثّر هذا الكلام بالقاضي عزيز وأخذ يبكي بدموع غزيرة، وأخذ يقول:

((يا سيدي... أنا تركت كل أموالي على عتبـة بـابكم، ومـرادي أن أصـبح طـالبكم وأتشرف بخدمتكم فقط)).

فقال الشيخ:

((يا حضرة القاضي.. هذا أمر صعب علـيكم. يجـب عليـك أن تـتخلى عـن كـل أموالك وتترك القضاء وتخلع ثوبـك الفـاخر، ثـم تبيـع في الشـوارع لـكي تكسـب قـوت يومك)).

وافق القاضي عزيز على هذه الشروط، فترك القضاء وتصدّق بأمواله، وأخـذ يبيـع الكبد المشوي في الطرقات، فمن قاضٍ لبورصة والأمور البلدية والتعليم إلى بـائع متجـول بين شوارعها. وظل عزيز يتعلم تحت يدي شـيخه إلى أن أصـبح مـن كبـار علـماء الكـلام والتصوف، والمربي الخاص للسلطان أحمد الأول.

أي كرامة أكبر من هذه

كان السلطان احمد الأول[1] يحب مربيه وشيخه عزيز محمود خـدائي كثـيراً، وكانـت الزيارات كثيرة بينهم. وكلما زار السلطان الشيخ في بيته كان يقوم الشيخ بخدمـة السـلطان لأنه في بيته. حدث أن زار الشيخ مرة السلطان في قصر طوب قابي، ففرح به السلطان كثيراً وطال الحديث حتى جاء وقت الصلاة، فطلب الشيخ الإذن من السلطان لكي يتوضأ، فـأمر السلطان على الفور بإحضار إبريقه الذهبي الخاص ومناشف السـلطان الخاصـة. وبالفعـل تم إحضار الإبريق وجاءت والدة السـلطان بالمناشـف. فقـام السـلطان بسـكب الماء عـلى شيخه أثناء وضوئه، فقالت السلطانة تمدح الشيخ وكأنها تسأله عن كراماته:

((أن شيخاً عظيماً مثلك يحبه الـلـه، لا بد أن يختصه بكثير من الكرامات، فهل لكم كرامات يا شيخنا ؟)).

فقال لها الشيخ بعد أن انتهى من الوضوء:

((رجل يتوضأ بإبريق حاكم أقوى دولة في العالم، وهـو مـن يسـكب عليـه المـاء. ووالدته تأتيه بالمناشف، وهو شيخ عادي وبسـيط... هـل يوجـد كرامـة أكـبر مـن هـذه الكرامة ؟!)).

المسجد الأزرق والمآذن الستة

يذكر أن السلطان احمد طلـب مـن المهنـدس المعـماري الشـهير محمـد أغـا بنـاء مسجد جميل، ومختلف عن المساجد العثمانيـة السـابقة .فتقـدّم المعـماري محمـد أغـا بتصميم رائع غاية في الهندسة والجمال والدقة. ومـا إن وضـع التصـميم أمـام السـلطان سرعان ما رفضه، دُهِش المهندس البارع إذ يستحيل أن يكون هناك ما هو أروع من هذا التصميم.فقال المهندس:

1 هوالسلطان أحمد بن محمد الثالـث 1603-1617, السـلطان الرابـع عشر مـن السـلاطين العثمانيـين تـولى الحكم وعمره 14 عشر عام خلفاً لوالده محمد الثالث.

((هل التصميم لم يعجبكم يا مولاي، إن كان هناك ملاحظات سوف اعدّلها)).

فقال السلطان:

((لا.. إنه مسجد حقُ جميل، وأنا لم أر أروع من هذا، لكن هـذا المسـجد يحـوي على ستة مآذن وهذا لا يجوز، لأن المسـجد النبـوي يحـوي أيضـاً سـتة مـآذن، ولا يجـب المساواة بين أي مسجد والمسجد النبوي الشريف)).

نعم رفض السلطان احمد ذلك التصميم لأنه يحتوي ست مآذن .إحتـار المهنـدس كثيراً فتصميمه الرائع لا يوجد ما هو أفضل أو أعظم منـه، لكـن سرعـان مـا اهتـدى إلى حل، على الفور ذهب إلى المدينة المنورة على ساكنها السـلام، وأخـذ الإذن مـن السـلطان ببناء مئذنة سابعة هنـاك، وبالفعـل تـم ذلـك، وبعـد عودتـه إلى اسـطنبول أعـاد نفـس التصميم إلى السلطان، الذي وافق عليه هذه المرة، وأمر سريعـاً بالمبـاشرة بهـذا المسـجد الفخم مسجد السلطان احمد أو المسجد الأزرق، ليكون هذا المسـجد الوحيـد في الدولـة العثمانية الذي يحوي ست مآذن[1].

حادثة تدمع لها العين

يعتبر السلطان أحمد الأول من السلاطين الزاهدين، ومع أنه أستلم الحكـم وهـو في الرابع عشرة من عمره إلّا أنه تربّى على العلم والدين والفروسـية كسـائر السـلاطين، لم تمنعه حداثة سـنه مـن الـتصرف والتعبّـد بطريقـة تفـوق العلـماء ورجـال الـدين، تـوفي السلطان وعمره فقط 28 عام، وأوصى قبل موته أن يقـوم شـيخه ومربّيـه العـالِم عزيـز محمود خدائي الذي ربّاه على التقشف والتدين بتغسـيله وتكفينـه عنـد موتـه. وعنـدما أخبروا الشيخ عزيز بوفاة السلطان حزن كثيراً لسماع هذا الخبر، وتنفيذاً لوصـيتهِ ذهـب الشيخ لتغسيل السلطان. أخذ الشيخ يبكي وهـو يخلـع ملابـس السـلطان التـي وجـدها مليئة من الداخل بالمشابك المدببة وظهره مليء بـأثر تلـك المشـابك. كانـت هـذه عـادة

1 ينفرد مسجد السلطان أحمد بهذا العدد من المآذن, فلقد كانت العادة أن المساجد التـي يبنيهـا السـلاطين تحوي مئذنتين أو أربعة, أمّا المساجد التي يبنيها الوزراء والعامـة فـلا يجـب أن تحـوي أكـثر مـن مئذنـة. لذلك سمى المساجد التي تحمل أكثر من مئذنة بمساجد سلطانية.

المتبعة بين الدراويش والعبّاد لكي لا يرتاح ويستيقظ قبل الفجر ويشغل نفسه بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، لم يتمالك الشيخ نفسه من البكاء الشديد، وقال هذه الكلمات النفيسة:

((أي أحمد... أي أحمد ... لقد سبقت عزيزاً بمراحل)).

الله يراني

كان العالم والشيخ الجليل عزيز خدائي وهو مؤلف وقاضي وشاعر ذائع الصيت ويحترمه كل العلماء والعامة، وكانت مدرستهُ يأتيها الطلاب من كل أنحاء الدولة، كان من بين الطلاب صبي مجتهد وذكي ويلاقي دوماً اهتماماً وعناية زائدة من الشيخ، كان يشكل هذا غيرة وحسداً من الطلاب الآخرين، ولمّا سألوه عن سبب هذه المعاملة المميزة لهذا الطالب لم يجبهم عن السؤال، وفي اليوم التالي أحضر الشيخ صندوقاً فيه دجاج، وأعطى كل صبي دجاجة، وقال:

((أريد من كل واحد أن يأخذ دجاجة، ويذهب ليذبحها بمكان لا يراه فيه أحد وأن يعود سريعاً لكي أعرف من سيأتي أولاً)).

بعد مدة أخذ الطلاب بالعودة واحد تلو الآخر إلى أن جاء الجميع باستثناء الصبي الذي يحبه الشيخ، وأخيراً عاد الطالب ومعه الدجاجة غير مذبوحة. سأله الشيخ:

((لماذا لم تذبح الدجاجة ؟)).

فقال الطالب:

((يا شيخي... لقد ذهبت إلى أبعد منطقة وعندما هممت بذبح الدجاجة، تذكرت أن الله يراني، فعرفت أنه أينما ذهبت سيراني الله لذلك عدت، أنا لا أستطيع أن أذبحها دون أن يراني أحد)).

تبسّم الشيخ وقال:

((هذا جوابي على سؤالكم البارحة)).

أخلاق التاجر العثماني

وصلت سمعة المنتجات النسيجية العثمانية إلى أقصى قدر واحترام في كل أوروبا، وذلك لما تتمتع به من متانة وجودة عالية، كانت السفن تأتي من كل أوروبا لشراء البضائع العثمانية والنسيج، وتصطف أحيانا لأسابيع في الميناء تنتظر الدور. وفي يوم مشمس كانت السفن الهولندية كثيرة جداً واستمر التحميل لساعات طويلة. إبتسم أحد التجار الهولنديين وهو يمشي بخيلاء ولا يخفي سعادته بعد أن نادوا على اسمه، فلقد حان دوره الآن، وسيستلم المنسوجات التي انتظرها لأيّام من أحد التجار العثمانيين، وبالفعل أخذ العمال ينزلون له قطع الأنسجة والقماش والتاجر الهولندي يأخذها بشغف وسعادة. كان التاجر العثماني يتفقد البضاعة ويُخرج تلك المعيبة ويضعها جانباً. وبعد الانتهاء قال التاجر الهولندي:

((لماذا لم تعطيني تلك المعيبة فأنا لم أنتبه ؟!))

قال التاجر العثماني: ((هذا غش.. وليس من عاداتنا فعل ذلك)).

توقّع الهولندي هذه الإجابة، وقال:

((حسناً.. أنا أريد أن أشتري تلك المعيبة، لكن بسعر أرخص)).

التاجر العثماني:

((هذه المنسوجات ليست للبيع، سوف تعود ويُعاد تصنيعها)).

هنا قال الهولندي وهو مندهش:

((أرجوك... فلقد جاء دوري بعد طول إنتظار، وأريد أن أعود إلى بلادي بكميات أكبر، لن أنتظر ليحين دوري من جديد)).

إلّا أن التاجر العثماني رفض، رغم كل محاولات الهولندي الذي قال له بالنهاية:

((حسناً، سوف أشتريها بسعر جيد، بنفس سعر الصحيحة)).

صُعِق التاجر الهولندي بعد أن رفض التاجر العثماني هذا العرض أيضاً، وسأله عن سبب كل هذا العِناد والرفض؟!.

فقال التاجر العثماني:

((إنك سوف تعود لبلدك وتبيع بضاعتك وتـربح، لكـن النـاس الـذين سيشـترون بضاعتنا سوف لن تعجبهم ويتذمرون منها، فتصبح الدولة العثمانية سيئة السـمعة بعـد أن كانت تتمتع بسمعة عالية بجودة القـماش والنسـيج، وبعـد سـنوات لـن تجـد هـذه الطوابير من السفن، لذلك أرجوك هذه البضاعة ليست للبيع)).

غادر التاجر وهو مصعوق من هذه الأمانة وحب الوطن الذي أبداه هـذا التـاجر العثماني، لكنه سعيد أيضاً ففي جعبته الآن بعض أروع الأقمشة في العالم.

لا تتكبر أيها السلطان

كان من عادات السلاطين العثمانيين بعد الخروج من الصلاة في المساجد الترحيـب بالناس التي تتكـاثر وتتسـابق للسـلام عـلى السـلطان، وتسـمى هـذه المواكـب بمواكـب السلاملك[1]. وفي طريقه إلى العربة تصطف الناس للسلام والتصفيق وإلقاء عبـارات المـدح والتبجيل وإلقاء الشعر، الأمر الذي كان يعجب السلطان ويدفع في نفسه الغرور أحيانـاً، لكن من العادات التي لا نعرفها هو ماذا كان يقول الحرس والمـرافقين للسـلطان في ظـل هذه الأجواء ؟!.

كان الحرس يردّد ويقول بتكرار على مسمع السلطان كلما اقتربوا منه:

" لا تتكبّر أيها السلطان، الـلـه اكبر منك.. لا تتكبّر أيها السلطان الـلـه أكبر منك ".

هدية أجار الأسنان

يعتبر شـهر رمضـان في الدولـة العثمانيـة شـهر الخـيرات والتكافـل الاجتماعـي، وهناك الكثير من العـادات العثمانيـة التـي شـكلت صـدمة ودهشـة للـزوار الغـربيين والمستشرقين وحتى للباحثين، وهي أكـثر مـن أن تـحصى، ولعـل أجـرة الأسـنان أكثرهـا

1 مشتقة من الكلمة العربية " السلام " , وهي مراسم يقوم بها السلاطين أثنـاء ذهـابهم إلى صـلاة الجمعـة, حيث تصطف فرق الخيالة والحرس السلطاني وسط حشود الناس التي تخرج لرؤية السلطان. كانت تُرمى أحيانا النقود على الناس بينما الناس ترمي طلبات وشكاوي بورق إلى مرافقي السلطان. ظلت هذه العادة حتى آخر عهد الدولة العثمانية.

غرابة، ففي شهر رمضان من كل عام كان يقوم الأغنياء والمسؤولين والوزراء بفتح بيوتهم وقصورهم قبل الإفطار، ويرسلون الخدم إلى الشوارع والفقراء وعلى باب القصر لدعوة العامة والمارة للدخول وتناول الإفطار، وبعد أن يجلس رجال الدولة وأبسط الفقراء والعامة على طاولة واحدة، يضرب مدفع الإفطار معلناً انتهاء الصوم، فيقوم صاحب البيت بواجب الضيافة ويتناول كل المدعوين الإفطار والحلويات والكثير من العصائر، ثم يقوم صاحب البيت بتوزيع صرر من المال على كل الموجودين قبيل مغادرتهم كهدية تسمى بهدية أجار الأسنان، كتعبير عن مكافأتهم لما منحوه له من أجر عظيم بتفطيرهم.

ويذكر أن محمود باشا الصدر الأعظم زمن الفاتح كان يصنع موائد كبيرة في الشوارع ويضع داخل الطعام دنانير ذهبية ليشجع الناس على القدوم. وظلّت عادة أجرة الأسنان متّبعة حتى أواخر الدولة العثمانية. وكان السلاطين يعطون أجرة الأسنان ليس في شهر رمضان فقط بل في كل المناسبات.

السلطان مراد والطيران

يتّفق المؤرخون أن عهد السلطان مراد الرابع[1] هو عصر محاولات الطيران في الدولة العثمانية، فنتيجة لازدهار وتطور العلم والاكتشافات اتجهت أنظار بعض العلماء لمحاولة الطيران. ومن تلك المحاولات والاختراعات سنذكر محاولة العالِم حسن لاكاري والعالِم محمد جلبي.

في عهد السلطان مراد الرابع وبمناسبة قدوم مولود له، قام السلطان بإقامة حفل ضخم دُعي إليه كل العامّة والمسؤولين، ومن بين الحضور العالم حسن لاكاري ألذي أعلن أنه سيقدّم مفاجأة بين يدي السلطان. كان حسن مخترع وعالم في الكيمياء

1 مراد الرابع بن أحمد الأول بن محمد الثالث 1623-1640, من أشهر وأقوى السلاطين. أعاد النظام للجيش والدولة بعد سلسله من البطش والشدة, قام بقيادة الجيوش ودخل بغداد فاتحا بعد معركة ضد الصفويين, التي اعتبرت من أشهر المعارك العثمانية.

والحركة، وبعد تقديم التهاني والحلويات أمر السلطان حسن بالتقدم إلى الساحة ليقـدم عرضه. سار حسن ورفع الستار عن صاروخ ضخم وتقدم نحو السلطان وقال له:

((يا سلطاننا العظيم... أنا ذاهب إلى السماء، لكي اسلِّم على سيدنا عـيسى عليـه السلام)). ثم مشى بخطوات ثابتة باتجاه الصاروخ الضخم والحشود حوله تنظر وتنتظـر بلهفة ماذا يصنع، ركب حسن على الصاروخ الذي كان طوله قرابة ثلاثة أمتـار وموصـول حوله من الأسفل صواريخ صغيرة لإحداث التـوازن وزيـادة الـدفع. أعطـى حسـن الأمـر لأحد مساعديه بإشعال الفتيلة الموصولة بعجينة البارود داخل الصـاروخ. أخـذ الصـاروخ بالصعود عالياً ووميض فوهته تنير كـل المكـان، شـاهد الجميـع والسـلطان الـذي وقـف مشدوداً بعيون التعجب والإعجاب بهذا التحليق الـذي جـاوز 300 مـتر في الجـو، وبعـد نفاذ البارود فرَدَ حسن جناحين كان يلبسهما وسقط في البحر بـبطء. بعـد أن خـرج مـن البحر جاء الى السلطان وسلّم عليه وقال:

((يا سلطاننا العظيم... إن سيدنا عيسى عليه السلام يسلّم عليك)).

تبسّم السلطان كثيراً ووسط تصفيق الجماهير أهدى له كيساً من الذهب ومنحـه راتباً شهرياً. وبأتفاق كل العلماء في العالم يُعتبر صاروخ حسن هو أول محاولة صـاروخية والتحليق بواسطة آلة.

وفي عهد هذا السلطان أيضاً كان هناك عالم عـثماني يـدعى أحمـد جلبـي الملقـب بهزار فن، قام هذا العالم بمحاولات كثير للطيران وبكل محاولة كان يرصـد سـبب الفشـل ويقوم بتطوير الشراع الذي صنعه، وفي عام 1636 أعدّ العدة للطيران الكبير بعد أن حدّد اليوم المناسب آخذاً بعين الاعتبار الشمس وسرعة الرياح، وأبلـغ كـل النـاس بهـذا اليـوم، وفي ذلك اليوم المشهود تجمع أهالي اسـطنبول عـلى السـاحل، وبعـد مـدّه أصبح هنـاك زحام شديد، وكان السلطان والمسؤولين يشاهدون المحاولة من قصر سنان باشا.

قفز أحمد جلبي من فوق برج غلطة وهو ممسك بالشراع الكبير، وأخذ يتمايـل بـه في الجو مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار، محلقاً فوق كـل الحشـود التـي أصـابتها الدهشـة، وأستطاع الوصول إلى الجانب الأسيوي عـابراً كـل مضـيق البوسـفور وقاطعـاً مسـافة تزيـد

عن سبعة كيلومترات، ونزل بنجاح في منطقة اسكدار. تعتبر هذه المحاولة أيضاً أول محاولة شراعية ناجحة، لاقى أحمد إحسان السلطان أيضاً، وسمّاه الشعب "هزار فن " أي صاحب الألف فن وعلم.

الباب الجديد " يني قابي "

السلطان مراد الرابع من أشد السلاطين شراسة وجبروت في تطبيق القوانين، كان يُنزل أشد العقوبات على الفاسدين ومخالفي القوانين، والكل يعرف كيف حارب هذا السلطان عادة شرب الدخان التي انتشرت بالدولة، فكان من أراد أن يشرب الدخان يبتعد أو يختبئ خوفاً من العقاب، خاصة بعد أن عرف العامة أن السلطان يخرج كل يوم إلى الشوارع متخفياً.

حدث مرة أن خرج السلطان متخفياً مع أحد مرافقيه، فركب قارباً بالأجرة مع حشد من الناس متوجهاً إلى الجانب الأسيوي من اسطنبول، أعطى السلطان إشارة إلى مرافقه، فقام الأخير بإخراج كيس من التبغ وأخذ يدخن. إرتج المركب كله من الخوف وأخذ الركاب يرجوه أن يتوقف قبل أن ينتبه رجال السلطان.

فقال شخص يدّعي أنه يعرف الغيب:

((لا تخافوا... لا تخافوا... السلطان الآن نائم، وهو لا يدري)).

فقال السلطان:

((وكيف عرفت ؟)).

فأخذ الرجل ينظر إلى السلطان ويحدّق طويلاً، ثم أخرج من جيبه منديل وأخذ يضرب بالرمل. وما هي إلّا لحظات وأخذ يصيح:

((الأمان... الأمان أيها السلطان، أغفر لي أيها السلطان)).

خُلعت قلوب كل من في المركب، فقال السلطان للساحر:

((مع إنني أعجبت بك، لكن من سينقذ رأسك الآن من السيف أيها الفاجر))

ثم أمر قائد المركب بالرجوع إلى إسطنبول، وقال للساحر:

((سوف أعفو عنك بشرط واحد، وهو إن عرفت من أي باب سأدخل على إسطنبول)).

فأخذ الرجل ويداه ترتجف يضرب بالرمل، ثم أخرج ورقة وكتب عليها، وأعطاها للسلطان. أخذ السلطان الورقة وهو يبتسم ثم أمر قائد المركب بالإبحار جنوباً إلى منطقة لا يوجد بها أبواب. فنزل السلطان واخذ يصيح على الحراس حول السور، وبعد أن هرعوا إليه أمرهم أن يفتحوا بالسور فتحه يستطيع أن يدخل منها.

وبالفعل دخل السلطان من الفتحة ثم أخرج الورقة. فدهش عندما قرأ:

" مبروك عليكم الباب الجديد يا سلطان السلاطين"

أعجِب السلطان بالعراف وعفا عنه بعد أن تعهد للسلطان بعدم الرجوع للسحر والشعوذة.

فتح بغداد

تعتبر مدينة بغداد من المدن التاريخية والحضارية للأمة الإسلامية وواحدة من أهم مدن العالم الإسلامي، وكانت تشكل دوماً مصدر نزاع بين الدول الإسلامية لم تشكله من قدسية. واستطاع السلطان سليمان القانوني من ضم هذه المدينة إلى حاضرة الأمة العثمانية الإسلامية. لكنها سقطت بيد الصفويين الشيعة في بداية القرن السابع عشر الأمر الذي شكل إستنفاراً وغضباً شعبياً عارماً في صفوف الشعب العثماني والحكومة والسلطان مراد الرابع الذي وبّخ واليه على بغداد حافظ باشا عندما طلب النجدة ليقاتل في قصيدة شعرية:

" أليس ثمة بطل ينجد بغداد يا حافظ؟

أليس لديك جند لتطلب النجدة منا؟

ألم يبقى مكان نصول فيه بخيلنا أمام العدو؟

لا أحد يجاريك بالكلام يا صديقي أعرف

ولكن أما بقي لحصانك مكان صولة؟ "

لم تنجح كل المحاولات لإستعادة بغداد فقرر السلطان الشاب الخروج بنفسه لقيادة حملة ضخمة لا تبقي ولا تذر، وخرج معه شيخ الإسلام والصدر الأعظم، كما أخرج سيف سيدنا عمر رضي الله عنه وأمر أن يرفع ليراه كل الجند، فوصل بغداد بعد أن أمّن الطريق، وبدأت معركة وصفها كل المؤرخون بأنها أشرس معركة خاضتها الدولة العثمانية على الإطلاق طيلة تاريخها هي معركة إسترداد بغداد من الصفويين عام 1639. قدّرت القوات العثمانية 170 ألف، وكان بانتظارهم الجيش الصفوي بتعداد 110 ألف. إبتدأت المعركة لحظة وصول السلطان لبغداد واستمرت طيلة أربعين يوماً و أربعين ليلة دون أن يتوقف القتال ساعة واحدة.

كانت القوات العثمانية على رأسها السلطان نفسه وصدره الأعظم وجميع الوزراء. وبالمقابل كان الصفويون المتحصنون داخل بغداد برفقتهم الكثير من أمراء الصفوية وكل قيادات جيش إيران. بعد القصف والقتال طيلة الأربعين يوم استسلم الجيش الإيراني بعد أن خسر 87 ألف جندي. ودخل السلطان مراد الرابع بغداد بعد ان قدم العثمانيون الكثير من الشهداء على رأسهم الصدر الأعظم طيار محمد باشا.

قام السلطان بإعمار المدينة وترميمها وإعادتها إلى حاضنتها العثمانية، وخاصة قبر الإمام أبي حنيفة الذي لاقى تحقيراً من الصفويين. كانت بلا شك هذه أشرس وأضخم معركة خاضتها الدولة العثمانية على الإطلاق ، بطلها بلا شك فاتح بغداد السلطان مراد الرابع الذي كان ينام على صهوة جواده طيلة المعركة وأرهق مرافقيه بكثرة تحركاته بين الجيوش. كما تُعتبر أيضا من أشرس المعارك عبر التاريخ.

بعد الانتصار دخل السلطان اسطنبول وسط حشود هائلة خرجت لاستقباله مصطحباً معه كل القادة الصفويين مكبلي الأيدي. وتم بناء رواق بغداد في قصر طوب قابي بمناسبة النصر وفتح بغداد.

حذاء من ذهب

في أزقة وشوارع إحدى المدن الكرواتية كـان يمشي طفـل صـغير لم يتجـاوز عمـره عشر سنوات حافي القـدمين، كانـت الأمطـار غزيـرة والجـو بـارد جـداً وصـاحبنا الصـغير جوزيف يمشي وعلامات البرد واضحة عليه، وبينما يمـر مـن بـين البيـوت شـاهدته امـرأة فرقّت لحاله وشفِقت عليه، فأعطته زوجاً من الأحذية لتساعده وتصبّره على قسوة الـبرد والشارع. كانت هذه الهدية أروع هدية يتلقاها جوزيـف الطيـب طـوال حياتـه، وأخـذ ينظر إلى المرأة ولا يستطيع أن يشكرها من شدة فرحه ودموعه. تمـر السـنوات وتسـمع هذه المرأة التي أصبحت عجوزاً صـوت طـرق عـلى البـاب، تقـف المسـكينة وتسـاعدها خطواتها إلى الوصول للباب بصعوبة، تفتح الباب وتجد عـلى الأرض زوجـا مـن الأحذيـة مملوءة بالذهب، وخلفه رجل قوي وشديد البنية ينظر إليها وهو مبتسم.!!.

فقالت له:

((تفضل... ماذا تريد ومن أنت يا بني؟!)).

فقال:

((ألا تذكريني.؟ أنا جوزيف الطفل المتشرد، وهذا الحذاء المملـوء بالـذهب هـو الحذاء الذي أعطيتني إياه لمّا كنت حافياً. يا أمي أنا لم أنس صنيعك معـي، وهـذا نفـس الحذاء احتفظت به طول تلك المدة، وأريد أن أعيده لك الآن)).

جوزيف الواقف أمام العجـوز إسـمه الآن " يوسـف باشـا " بعـد أن أسـلم وهـو صغير، وأصبح من أشهر العسكريين العثمانيين وأهم القادة البحريين في الجيش العثماني، فاتح مدينة خانا وصاحب الانتصارات العسكرية في حصـار كريـت الشـهير عليـه رحمـه اللـه.

إفتتان الغرب بالثقافة العثمانية

وصلت حمّى تقليد العثمانيين درجه لا توصف أبّان القرنين السابع والثامن عشر، ولاقى لباس الأزياء العثمانية والأثاث بالبيوت استهجان رجال الدين الذي اعتبروه تقليد للشرق، وسنذكر الآن قصة تبيّن مدى هذا الافتتان.

في عام 1664 بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الدولة العثمانية ودولة النمسا، أرسل إمبراطور النمسا سفارة ضخمة إلى الدولة العثمانية محمّلة بالكثير من الهدايا، فرد عليه السلطان محمد الرابع[1] بان أرسل سفيراً فوق العادة[2] اسمه محمد باشا، في هذه الأثناء كانت الشعوب الأوربية تتوق لرؤية العثمانيين والتعرف الى عاداتهم ولباسهم.

لمّا دخل الباشا فينا مع وفده المكون من 299 شخص عام 1665، تكدّس الشعب على الشوارع، ولم يبق أحد في فينا إلّا وخرج لرؤية العثمانيين، لدرجة أن الأماكن المُشرفة على طريقهم أجِّرَت بمبالغ طائلة، كانت الفرقة العسكرية العثمانية تتقدم الوفد وتعزف موسيقى الجيش المهترية التي إرتجت لها شوارع وسكان فينا، استقبل الشعب النمساوي الوفد العثماني وكأنه جيش بلاده العائد من النصر بالتصفيق والورود، حتّى أن الإمبراطور نفسه أستقبل السفير العثماني إستقبالاً يليق بالملوك.

بعد أيّام وافق الباشا على الكم الهائل من المقابلات التي جاءت إليه من الكونتيسات والأمراء والدوقات، وكان يجيب عن أسئلتهم حول النساء العثمانيات، اسطنبول،

1 السلطان محمد الرابع بن إبراهيم الأول 1648-1687, هو السلطان التاسع عشر من السلاطين العثمانيين, شهد عصره الكثير من الحروب والمعارك ضد الدول الأوروبية, وأصبحت في عهده الكلمة الأولى والأقوى للباب العالي. عرف بشجاعته وحبه الشديد للصيد.

2 كان من عادة الدولة العثمانية في فترة القوة أن ترسل سفراء فوق العادة فقط, ولا ترسل سفراء دائمين بعكس بقية دول العالم. السفير فوق العادة يذهب فقط من أجل مهمة معينة ويعود حال إنجازها. كان هذا بسبب استعلاء الدولة العثمانية على سائر الدول الأوروبية.

البيت العثماني واللباس، الإسلام ..الخ.

وكان من عادة الناس أن تحتشد حول القصر المخصص للباشا وتنتظر لساعات خروجه للصلاة التي كان يخرج متعمداً أداءها بساحة القصر.

قرة مصطفى باشا والسفارة البولندية

أثناء توتر العلاقات البولندية العثمانية، قامت بولندا بالهجوم على أجزاء من ولاية كرواتيا التابعة للدولة العثمانية، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية تعلن الحرب ضد بولندا، فخرج السلطان محمد الرابع ومعه الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا بجيش كبير وقام بتأديب البولنديين. على أثر ذلك وقّعت معاهدة تنازلت خلالها بولندا عن الكثير من أراضيها ودفع غرامات وجزية كبيرة.

شكلت الخسارة وصمة عار للبولنديين فقاموا بجمع الكثير من الضرائب والأموال وبدعم من دول أوروبية جهزوا هذه المرة جيشاً ضخماً. دارت الكثير من المعارك التي لم تحسم ووقعت معاهدة جديدة بين البلدين. في ظل هذا التوتر الكبير وبعد توقيع الصلح أرسلت بولندا سفارة ضخمة إلى إسطنبول من أجل إكمال ترسيم الحدود والعلاقات بين البلدين.

وصلت السفارة الضخمة عام 1677مكوّنة من ثلاثمائة نبيل وكاهن وجندي بولندي بأزياء صارخة الألوان وريش البلشون على قبعاتهم، من أجل إظهار العزة والكبر وتخويف الشعب والحكومة والسلطان.

كانت أعدادهم الضخمة والكبيرة ولباسهم ترسل إشارات الحرب والتكبر، كانت خيولهم مركبة في حوافرها حدوات فضيّة لتخبر من ينظر إليها بالغنى والعزة التي يملكونها وبمشيتهم بتكبر وعنجهية دخلوا المدينة. وعند وصول السفارة إلى مقر الباب العالي[1] نزلت إلى مكان الاستقبال وخرج الصدر الأعظم في ذلك الوقت قرة

1 الباب العالي هو مقر الحكومة العثمانية في قصر طوب قابي, ويدل الاسم على الحكومة وليس المقصود قصر السلاطين. وأخذ الاسم يأخذ مكان أكبر كتعبير عن الحكومة العثمانية وقراراتها. كقول قرر " الباب العالي " أي قررت الحكومة. انتقلت كل الصلاحيات في الدولة بيد الباب العالي بعد تولي عائلة كوبرلي الصدارة العظمى في عهد السلطان محمد الرابع لتصبح هي صاحبة القرار وليس السلطان.

مصطفى باشا، وبعد أن نظر أليهم وهو يبتسم قال بصوته الجهوري:

((إن عددكم أصغر من أن يخيفنا، لكن عددكم كبير الصراحة أن أردتم تقبيل أعتاب الباب العالي فنحن نخشى أن يلوث هذا الكم الكبير من الشفاه الصليبية قدسية هذه العتبة. ولا تقلقوا... إن السلطان لن يجد صعوبة في إطعام ثلاثمائة بولندي، فهو يملك ثلاثة آلاف بولندي يعملون كعبيد لمراكبه ولا ضير إن زاد العدد قليلاً))

بهذه العبارات القاسية والرنانة أستقبل الصدر الأعظم هذه السفارة التي طارت قلوبهم خوفاً لدى سماعهم هذا الكلام.

روسيا تدفع الجزية للدولة العثمانية

كانت روسيا تدفع جزية سنوية للدولة العثمانية، ولكنها تراجعت عن ذلك في حالة إعلان حرب على الدولة العثمانية. غادر السلطان محمد الرابع والصدر الأعظم قرة مصطفى باشا على رأس حملة هائلة هي الحملة الأولى لسلطان عثماني على روسيا، بلغت القوات العثمانية قلعة جهرين في أوكرانيا، فضُربت عليها الحصار ورغم أن الجيوش الروسية تقدر بمائتي ألف جندي، إلا أن القلعة سقطت بعد شهر تقريباً وقُتل من الروس ما يزيد عن عشرين ألف جندي، ثم عاود السلطان بحملة ثانية على روسيا بعد عامين، وانتهت بعد أن رضخت روسيا للمطالب العثمانية، وعقدت معاهدة الصلح عام 1681. نصّت المعاهدة على شروط كثيرة منها:

" أن تتنازل روسيا عن الكثير من الأراضي، وتبقى معظم أوكرانيا بيد العثمانيين. تقوم روسيا بدفع غرامات حرب كبيرة، وتدفع الجزية المتراكمة التي لم تدفعها طيلة فترة الحرب دفعة واحدة. ومع أن الوفد الروسي جاء ومعه الكثير من الهدايا للسلطان إلّا أن السلطان قال للسفير الروسي:

((قل لمليكك أن يراعي الصلح وإلّا تعرض للعقاب)).

قرية إيطالية تحتفل بالعثمانيين

تشتهر قرية موينا الايطالية ببعض العادات الإسلامية مثل المهر في الزواج، كما يحدث كل عام في شهر أغسطس احتفال كبير اسمه "تركيا "، تزدان القرية بالأعلام العثمانية، وتلبس النساء اللباس العثماني والرجال زي الإنكشارية. لكن ما سبب هذا الاحتفال.؟! ولماذا يرفعون الأعلام العثمانية؟!.

بعد فشل الحصار العثماني لفينا عام 1683، عاد الجيش إلى الوطن، وفي طريق العودة استقر بجانب قرية موينا الايطالية لمداواة الجرحى. أعجِب أهالي القرية بأخلاق الجيش العثماني طوال فترة إقامتهم، وعند مغادرتهم ودِّعوا الجيش بالدموع. تزوج أحد أفراد ذلك الجيش بفتاة من القرية وقدّم لها المهر على الطريقة الإسلامية. وبقي هذا الجندي العثماني يعيش بين أهالي القرية كأحد أفرادها، لكنه وبسبب الضرائب الباهظة التي يدفعها الفلاحين لأمرائهم الإقطاعيين قام بالثورة على الظلم والفساد، وأصبح فيما بعد هذا الجندي رمزاً لهم وللحرية. من ذلك الوقت وإلى الآن تخليداً لذكرى هذا الجندي ما زالت قرية موينا تدفع المهر للفتاه عند الزواج على الطريقة الإسلامية، ويحتفلون به بلبس الزّي العثماني ويطوفون بالشوارع باحتفال ضخم.

عابدي باشا " العدو البطل"

الشهيد الشيخ عبد الرحمن عابدي باشا من أكثر الشخصيات المشهورة في أوروبا، لدرجة أنهم سمّوه بالعدو البطل. لكن ما سبب هذه التسمية ؟ ولماذا كل هذا التقدير لشخصية عابدي ؟.

إنظمّ عبد الرحمن عابدي إلى الجيش العثماني في سن صغيرة، وأبدى شجاعة ومهارة مكنتّه من الترقّي بالمناصب، فأصبح أغا ثم تولى ولاية بغداد ثم مصر فالبوسنة. ونتيجة للوضع الصعب لولاية المجر أُرسِل بطلنا ليكون والياً عليها عام 1682. لكن أوروبا كانت قد اجتمعت لوقف الزحف العثماني فتكوّن جيش صليبي بدعوة من البابا انسونت الحادي عشر، اشتركت فيه أوروبا كاملة، فالمجر هي الهدف. تكوّن التحالف من دول الإمبراطورية الرومانية، وبولندا، البندقية، بافاريا، وقوات

سويدية، وأعداد بسيطة من فرنسا، انجلترا، اسبانيا. وبلغت القوات أكثر من 80000 ألف جندي صليبي. انطلق الجيش الجرّار باتجاه بودا في المجر وحاصرها لتخليصها من الحكم العثماني. عابدي باشا الذي لا يملك سوى 8 آلاف جندي فقط يرفض تسليم المدينة، ويتجهز للقتال للوقوف ضد هذا الجيش الذي يكبره بعشرة أضعاف، وأرسل بطلب النجدة على وجه السرعة. ابتدأ القصف والقتل والشيخ عابدي يضرب أروع الأمثلة لجنوده في الصبر والمقاومة، طال الحصار والقصف وبعد خمسة أشهر كاملة يستشهد خمسة آلاف من الحامية العثمانية ولم يتبق سوى ثلاثة آلاف جندي فقط، ومع ذلك يرفض عابدي باشا كل مغريات الاستسلام.

لكن ماذا تصنع الشجاعة أمام الكثرة. يستطيع أخيراً الجيش الصليبي من تفجير الأسوار من شدة القصف ويتدفق كالنهر إلى داخل المدينة، في هذه اللحظات الحاسمة يقف عابدي باشا يرتب صفوف ما تبقي من جيشه الصغير ويقول:

((إنها الشهادة لا محالة... أيها الأبطال، لنستشهد بشرف دون أن نلطخ سمعة ديننا ودولتنا بالطين والعار)).

يمشي ببطء من شدة الإرهاق، يقف بالمقدمة رافعاً سيفه وعمره يقارب السبعين، وينطلق كالأسد هو ورفاقه، ويقاتل إلى أن يسقط شهيداً رحمه الله.

تسقط بودا أخيراً بعد حكم دام 145 عام تحت ظلال الدولة العثمانية، ويستشهد آخر حاكم عثماني لها عابدي باشا بشرف، كان رحمه الله محط إعجاب كل الصليبيين الذين لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم به، فسموه "عابدي العدو البطل".

رمي المنديل

كثيراً ما نرى أو نسمع عن العادات الغربية، ومنها أن ترمي فتاه منديل فيركض شاب ليلتقط هذا المنديل قبل أن يسقط على الأرض، لكن ما لا نعرفه أن الغرب أخذ هذه العادة وهي عادة عثمانية ظهرت باسطنبول.

ففي العهد العثماني كان إذا أعجب شاب بفتاه وبأخلاقها وجمالها يقترب منها

ويلقي عليها السلام مُظهراً لها إعجابه دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ثـم يبتعـد ويجلـس بعيداً. تنظر له الفتاه وإذا كانت ترغب بالزواج، تُخرج مـن جيبهـا منـديلاً وتلقيـه عـلى الأرض وتمشي في إشارة إلى قبولها ورغبتها بالزواج، يسرع الشاب لالتقاط المنـديل ويسـير خلفها إلى أن تصل إلى بيتها دون أن يتكلموا مع بعضهم ودون أن تنظر هي إلى الوراء.

بهذه الطريقة يكون الشاب قد عرف بيت الفتاه ورغبتها بالزواج، فيخـبر والدتـه وأخواته ويدلّهم على بيتها، ليبدأ بعدها دور النساء. ومن اسطنبول أُخذت هذه العـادة إلى أوروبا، وإلى اليوم يوجد في اسطنبول تل أسمه " تل العرائس " كان في العهد العثماني متنزه للعامة تكثر به هذه الظاهرة.

نصارى المورة

تعتبر جزيرة المورة أكبر الجزر اليونانية مساحة، وتشكل قسـم كبـير مـن اليونـان اليوم، وظلّت تحت الحكم العثماني لفترة طويلة جداً، نَعِم أهلُها بالأمن والحرية الدينية والمعاملة الحسنة التي اتّسم بها العثمانيون. في عهـد السـلطان سـليمان الثـاني[1] ونتيجـة لاشتداد الحروب والمعارك بين العثمانيين من جهة وبين النمسا والبندقية من جهة أخرى خسرت الدولة هذه الجزيرة لصالح البندقية. ورغم أن أهالي المـورة كـانوا مـن النصـارى كالبندقيـة إلّا أن الحكّـام الجـدد أذلّـوهم وعـاملوهم معاملـة دونيـة وأثقلـوا علـيهم الضرائب، وانتشرت حالة من الإحباط والتـذمر بـين كـل النـاس وأخـذت تعلـو الأصـوات المنادية برجوع الحكم العثماني.

بعد سنوات استطاعت الدولة العثمانيـة مـن اسـترجاع الجزيـرة بـالقوة، فخـرج الناس بالورود وعلّقوا الزينة ترحيباً بالعثمانيين ودمـوعهم تـذرف مـن الفـرح، فسـبحان اللـه الدين المعاملة.

1 السلطان سليمان الثاني بن إبراهيم الأول بن أحمد الاول1687-1691,هو السلطان الثاني والعشرون.

ملك السويد العثماني

كانت العلاقات السويدية الروسية متوترة للغاية في القرن الثامن عشر بسبب اختلافات على مناطق النفوذ، ولأن روسيا عدوة أولى للعثمانيين أدى هذا الاختلاف إلى تقارب عثماني سويدي، وتطورت العلاقات والتنسيق بين البلدين لدرجة أنه في إحدى الحروب العثمانية الروسية لم تشارك روسيا إلّا بنصف قواتها في الحرب لأن النصف الآخر كان على جبهة السويد بسبب حشد السويديين لجيوشهم بطلب من الدولة العثمانية. وفي إحدى المعارك السويدية الروسية استطاعت جيوش روسيا بإلحاق الهزيمة بالسويد وفرّ ملك السويد كارل الثاني عشر إلى الدولة العثمانية للحماية، وبالفعل مكث هذا الملك هو ومن نجا من جيشه داخل حدود الدولة، ثم تم نقله إلى أدرنة واسطنبول بسبب شكاوى الناس. أنبهر هذا الملك بالحضارة العثمانية والتطور الذي تعيشه. فدرس العلوم وتخطيط المدن، والبحرية العثمانية طيلة إقامته التي استمرت ست سنوات، وكان يقوم بترتيب شؤون دولته من اسطنبول، وادّعى أنه مريض وفضّل البقاء كلاجئ على العودة كملك في السويد عندما طلب منه السلطان أحمد الثالث[1] المغادرة، وبسبب محاولة خلعة عن الحكم في السويد أضطر أخيراً للعودة ومعه فرمان من السلطان العثماني بعدم التعرض له من أي دولة أوروبية، غادر هذا العاشق للثقافة العثمانية البلاد بهذه الكلمات التي قالها عند خروجه:

((طيلة إقامتي كنت أسيراً لدى العثمانيين، لقد فعل هؤلاء ما لم يفعله الحديد والنار والماء، لم أكن مقيّد القدمين ولا محبوساً في زنزانة... بل أنني حرٌ طليق أفعل ما أريد، ولكنني مرة أخرى أسير؛ أنا أسير النبل واللطف، لقد أحاطوني بهذا السوار الماسي. ما أعذب أن تعرفوا الحياة كأسرى أحرار وسط أمّة بهذا القدر من العطف، والطيبة، والأصالة، واللطافة، أنا أسيراً بكرمهم وأخلاقهم وحضارتهم ومعاملتهم

1 السلطان أحمد الثالث بن محمد الرابع 1703-1730, هو السلطان الرابع والعشرون في الترتيب, تعتبر فتره حكمه من أكثر الفترات التي تغيرت بها ثقافة المجتمع في العمارة والحدائق والثقافة, وتسمى بمرحلة الزنبق لانتشاره في هذه المرحلة من التحول الثقافي للدولة.

الطيبة)).

وعند خروجه أخذ معه طباخين عثمانيين لولعهِ الشديد بالمطبخ العثماني وكرات الكفتة[1]، ولعبه الشطرنج التي ادخلها إلى السويد والكثير من الكتب والمخططات العسكرية والبحرية، وأمر ببناء الحدائق في السويد على الطراز العثماني، كما أمر بصنع سفن حربية على الطراز العثماني وسمّاهما بأسماء عثمانية مثل يلدرم "الصاعقة" ويارماز "الجامحة". وبقيت العلاقات العثمانية السويدية متينة ليس بسبب العدو المشترك فقط بل بسبب عشق السويد للعثمانيين أيضاً.

إبراهيم أفندي وأول غواصة بالعالم

في عهد السلطان أحمد الثالث وبمناسبة ختان بعض الأمراء، عمّت الاحتفالات في اسطنبول لمدة ثلاثة عشر يوم، ووزعت المساعدات والهدايا على جميع فقراء المدينة، كانت الألعاب النارية ومباريات الفروسية والرماية تُعرض في الساحات، كانت أياماً لا تنسى، عمّت فيها السعادة أرجاء المدينة. وكان السلطان يحضر تلك الاحتفالات والمسرحيات. وفي إحدى أيام الاحتفال خرجت كل السفن الحربية والزوارق الملونة إلى البوسفور، واحتشد الناس على الشواطئ لمشاهدة العروض البحرية، وفجأة يخرج مخلوق ضخم من تحت البحر من بين السفن أصاب الناس الهلع والدهشة ، أخذ هذا المخلوق بالسير يمنة ويسرة بين السفن، وأخذت الناس تصيح: ((تمساح ضخم.. تمساح ضخم)).

وما هي إلا لحظات ويختفي المخلوق الضخم الذي كان بحجم ثلاثة سفن كياك[2] متجاوزاً خمسة أمتار، أخذ الناس ينظرون في كل الاتجاهات بحثاً عنه والدهشة والخوف تملأ القلوب، بعد ساعة تقريباً يخرج المخلوق الضخم على الشاطئ على

1 تعتبر كرات اللحم السويدية من أشهر أطباق المطبخ السويدي, وهي عبارة عن كرات من الكفتة, كان الملك كارل يحب هذه الأكلة كثيراً لدرجة أنها انتشرت بين كل الناس بالسويد.

2 كياك مصلح عثماني,وتطلق على السفينة التي تعمل بمجدافين ويتراوح طولها متران تقريباً.

أقرب مكان من شرفة السلطان، كان هذا المخلوق غواصة ضخمة على شكل تمساح، فُتح باب من الغواصة وخرج منها إبراهيم أفندي مهندس السفن في الأسطول البحري العثماني، وأتجه نحو السلطان وسلّم عليه وسط الكثير من الحشود التي أخذت بالتصفيق والمرح. كانت غواصة إبراهيم أفندي هي أول غواصة بالعالم مصنوعة من الفولاذ والتي قال عنها أنها كلفته جهد وتخطيط كبير، وقبل أكثر من ستين عام من اختراع الغواصة على يد الأمريكي ديفد بوشنل.

السلطان أحمد الثالث وحبه للرسول

كان السلطان أحمد الثالث أيضا من عشاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كسائر السلاطين، مع أنه كان يجيد العربية والشعر إلّا أن أهم مواهبه يبقى الخط، فهو بارع لدرجة أنه يعتبر من أشهر خطاطي عصره وهي بالمناسبة سِمة يجتمع بها كل السلاطين. كان السلطان أحمد يخطط بيده اللوحات ويرسلها إلى المساجد لتعليقها.

ومن شدة حبه واشتياقه لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قام بنسخ مصحفين بيده بخط جميل ورائع وأهداهما لقبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. قام الموسيقي والشاعر العثماني الشهير " عطري " بتلحين قصيدة مدحْ لسيدنا محمد عليه السلام، وبعد أن سمِعها السلطان دعاه إلى القصر وأمر بإقامة وليمة على شرف عطري.

وبعد تقديم الأطباق وضع رئيس السفرجية طبقاً ذهبياً أمام السلطان، فقال السلطان:

((هذا الطبق أعددته خصيصاً لسيدنا عطري، لا تضعه أمامي، ضعه أمامه!))

أصابت الدهشة عطري والحاضرون عندما كُشف الغطاء، لم يكن موجوداً فيه طعام، بل كان مملوءاً بالذهب، وقال وهو مندهش:

((هذا كثير يا سيدي... ماذا صنعت لأستحق كل هذا؟!))

فقال السلطان:

((هذه النقود لا شيء بالنسبة لي، لا يوجد أغلى من سيد البشر في قلبي، إن

هذه النقود مقارنه بعملك العظيم لا تعتبر شيء. ستذهب هذه النقود ويذهب عطائي، ويبقى عملك وعطاء اللـه لك)).

لقاح الجدري اكتشاف عثماني

أكتشف الأطباء العثمانيون لقاح لمرض الجدري في أواخر القرن السابع عشر أي قبل إدوارد جينر الذي يُنسب إليه اكتشاف اللقاح بمائه عام. ذكر عدنان اديوار في كتابه " علوم عثمانية " أنه تم تطعيم الأطفال في استانبول ضد الجدري منذ عام 1695.

وفي عام 1721 شاهدت زوجة السفير الانجليزي ماري ورتلي مونتاغ عندما كانت مع زوجها سفير لإنكلترا في استانبول كيفيه صنع واستخدام هذا اللقاح. وقامت بإخبار المعنيين عند عودتها إلى إنكلترا، وصرحت الليدي مونتاغ بأنه لم تحدث أي حاله وفاه لأي أحد لقح في الدولة العثمانية إلا أن أحدا لم يصدقها. لكن أوروبا قاومت دخول هذا اللقاح إليها وحرمت نفسها هذه الفائدة بسبب تحريم رجال الكنيسة لهذا اللقاح واعتبروا من يأخذه خارجاً عن الدين لأنه من صنع الكفار المسلمين.

وفي عام 1764 وافقت الأكاديمية الفرنسية على الاعتراف به وبفوائده. ورغم جهود العالم فولتير وتأيده لهذا اللقاح أيضا إلا أن الأطباء خافوا من الكنيسة. والجدير بالذكر أن الملك الفرنسي لويس الخامس عشر أصيب بالجدري فنصحه أطباءه بأخذ ألقاح العثماني إلا أنه رفض ذلك بسبب فتوى رجال الكنيسة، ومات الرجل بسبب المرض

نحن لسنا كالغربان

في عام 1740 توفي ملك النمسا تشارلز السادس تاركاً العرش شاغراً، فطالبت بفاريا[1] بوراثة العرش النمساوي واستغلت فرنسا واسبانيا ومعظم بلاد أوروبا هذه الفرصة، وأخذت تلتهم أراضي النمسا، استلمت الملكة ماريا تريزا مقاليد الحكم تحت هذه الظروف القاسية. ودعت فرنسا الدولة العثمانية بعهد السلطان محمود الأول بإستغلال الفرصة والهجوم معهم على أملاك النمسا عدوّه العثمانيين. ورغم أنه قبل موت تشارلز لم يكن للنمسا عدوه غير الدولة العثمانية التي خرجت من حرب معها، إلا أن السلطان العثماني محمود الأول[2] رفض الاشتراك ودعوة الأوروبيين له، لوجود معاهدة هدنة بين العثمانيين والنمسا، وقال السلطان للسفير الفرنسي:

((نحن لسنا انتهازيين، ولسنا كالغربان نهجم على الجيف. نحن دولة تحترم العهود والمواثيق، وإن كان لنا حق نأخذه بسيفنا في أرض المعركة وليس بطريقتكم المقرفة)).

لاقى هذا التصرف إحترام ملكة النمسا التي قدّرت للعثمانيين موقفهم النبيل والشجاع، وتناول كل المؤرخين الغربيين هذه الحادثة بعين الاحترام.

القناعة كنزٌ لا يفنى

كان الصدر الأعظم راغب باشا سياسياً محنكاً، عالماً بالعربية والفارسية وله دواوين شعرية فيها، وله مؤلفات بالعربية مثل كتاب الأدب العربي الشهير " سفينة الراغب ودفينة الطالب". في أثناء صدارته جاءته رسالة من رجل يلتمس من الحكومة

---

1 هي اليوم إحدى الولايات الاتحادية الست عشرة المكونة لألمانيا الاتحادية, كانت قديماً مملكة مستقلة. بعد جهود بسمارك تم توحيد كل الولايات الألمانية.

2 هو السلطان محمود الأول بن مصطفي الثاني 1730-1754, يلقب بالسلطان الأحدب

المساعدة في حالته، علِم راغب باشا من أسلوب الرسالة أنها من رجل مثقف وعالِم جار عليه الزمن، فكتب على نفس الرسالة من الأسفل:

((القناعة كنزٌ لا يفنى)).

وأمر بأن ترجع الرسالة لصاحبها. وبعد عدة أيّام عادت الرسالة لراغب باشا وقد كتب الرجل تحت كتابة راغب باشا:

((لا تفنى بعد الأكل والشرب والمأوى)).

علِم راغب بضيق الرجل وأعجِبَ بردّه، وأمر أن ينظر بحالته ويُلبّى طلبهُ.

السلطان محمود والشيخ علي نطقي

كان السلطان محمود الثاني[1] يحب القدوم إلى مولوية الشيخ علي ويستمع كثيراً إلى الدروس والصلوات وحلقات الذكر، ولقد واظب على هذا الأمر باستمرار. وبعد الانتهاء من الدروس وحلقات الذكر ينصرف السلطان بعد أن يوزع النقود على الطلاب والدراويش.

وفي يوم من الأيام وبعد إنتهاء الدرس وخروج الطلاب قال السلطان للشيخ:

((شيخي... هل تريدون شيئاً، أو تحتاجون شيئاً فأقوم بتنفيذه بالحال؟))

فقال الشيخ للسلطان:

((لا.. الحمد لله. كل شيء متوفر، ولا نحتاج شيئاً))

وبعد إلحاح السلطان على الشيخ، قال له:

((لو طلبت منك شيئاً هل تستطيع أن تنفّذه أيها السلطان ؟))

فقال السلطان وهو يبتسم: ((بكل تأكيد))

1 السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول 1808-1839,هو السلطان الثلاثون للدولة العثمانية. من أشهر السلاطين وأقواهم, تولى الحكم تحت ظروف حرجة داخلياً وخارجياً. قام بهيكلة الدولة وإعادة تنظيمها على الطراز الغربي, يسميه المؤرخون أبو الإصلاح, كانت فترة حكمه مليئة بالأحداث.

فقال الشيخ:

((طلبي أن لا تأتي إلى هنا مرة أخـرى... وإن أردت المجـيء فتعـال كـأي شـخص عادي، ولا تأتي هنا كسلطان وتوزع النقود على الطلاب والدراويش)).

الولايات المتحدة تدفع الجزية للعثمانيين

بعد أن أستقلّت الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا وظهورها كقـوة عالميـة جديدة، أخذت سفنها التجاريـة تجـوب البحـار رافعـةً العلـم الأمـريكي لأول مـرة. ولأن البحر المتوسط كاملاً يقع تحت السيادة العثمانية، كانت تـدفع كـل الـدول رسـوماً عنـد المرور من البحر، فهولندا وألمانيا مثلا تدفع رسوم 600 جنية، سردينيـا 6000 جنيـة وكـل دولة تدفع مبلغاً معيناً إما على شكل هدايا كفرنسا وبريطانيـا أو نقـدي. إلا أن أمريكـا تجاهلت الموضوع، فجاء الأمر للولاة العثمانيين على ليبيا والجزائر من اسطنبول بمصادرة كل السفن الأمريكية المارّة، وبالفعل تم أسر أكـثر مـن 11 سـفينة، فاضـطرت أمريكـا أن توقّع اتفاقية مع الدولـة العثمانيـة تـدفع مـن خلالهـا 642 ألـف دولار ذهبـي، وتلتـزم مستقبلا بدفع الرسوم، وقّع الاتفاقية المكتوبة بالعربية كلا من الـرئيس الأمـريكي جـورج واشنطن وحسن التركي باشا الجزائر عن الدولة العثمانيـة. إلّا أن أمريكـا بعـد سـنوات لم تدفع شيئاً رغم تلقيها تهديد شديد الـلـهجة من طرابلس والجزائر. قال رئـيس الولايـات المتحدة الأمريكية توماس جفرسون للأسطول البحري الأمريكي عندما أعلن الحرب:

((سنلقن هذا العثماني الأبله حاكم طرابلس درسـاً لـن ينسـاه في فنـون القتـال ، وسنجعله نصراً مدوياً ندشن به حقبة جديـدة، وبهـذا يـا سـادة نكـون خطونـا الخطـوة الأولى نحو الإمبراطورية الأمريكية)).

وبعـد الاسـتعراض الأمـريكي عـلى سـواحل المتوسـط يلقّـن العثمانيـون في ليبيـا الأسطول الأمريكي درساً في فنـون القتـال ويـتم أسر فيلادلفيـا[1] فخـر البحريـة الأمريكيـة

1 كانت السفينة فيلادلفيا فخر البحرية الأمريكية, وخوفاً من أن تأخذها القوات العثمانية, فضّل الأمريكيون إحراقها. أخذ الجنود العثمانيون سارية السفينة وعلقوها على سرايا طرابلس, وهي ما زالـت موجـودة إلى اليوم فوق السراي.

وكل طواقمها، وتم نسف السفينة وحرقها، ورضخت بعدها الولايات المتحدة بدفع غرامات حرب قيمتها ثلاثة ملايين دولار ذهب وجزية سنوية قدرها 20 ألف دولار سنوياً.

السلطان محمود والطفل الذكي

كان من عادة السلاطين التجول إمّا متخفيين أو بشكل ظاهر ليراقبوا الأسواق ويشاهدوا حالة الناس. وفي يوم من الأيام بينما كان السلطان محمود الثاني يتجول شاهد طفلاً صغيراً ووسيم. وبعد محادثة قصيرة ولطيفة، مسح السلطان بيده على رأس الطفل وأعطاه ديناراً ذهبياً. لكن الطفل رفض أن يأخذ الدينار، فاستغرب السلطان منه وسأله لماذا لا تأخذه ؟!. فأجابه الطفل:

((لن آخذه يا سيدي... لأنني لو أخذته، فإن والدي سوف يضن أنني سرقته من مكان ما)).

فقال السلطان محمود:

((لا تخف يا بني... قل لوالدك بأن السلطان أعطاني إيّاه)).

فقال الطفل:

((في هذه الحالة فأنه لن يصدقني على الإطلاق.. لأنه سيقول لي: لا يمكن أن يكون السلطان الذي أعطاه إليك، لأن السلطان لا يعطي مثل هذا المبلغ القليل)).

ضحِك السلطان محمود وسُرَّ كثيراً من نباهه وذكاء هذا الطفل وأعطاه كيساً من الدنانير.

الرفق بالحيوان ريادة عثمانية

لم تول أي حضارة رحمة وعطف بالحيوان كما أولت الحضارة الإسلامية بشكل عام والعثمانية على وجه الخصوص، ولم يبد أي شعب عبر التاريخ الرفق والاعتناء بالحيوانات كما فعل الشعب العثماني. ومع قلّة القوانين الخاصة بالحيوان إلّا أن

الشعب كان يعاملها بقوانين الأخلاق الحضارية المتوارثة من جيل إلى جيل. فضرب قطة بالشارع كفيلة بأن تجعل شهادتك غير مقبولة أمام القضاء، أو نظرة قاسية وتوبيخ من الناس بأضعف الإيمان. وقمّة الرفق تتجلى بالكم الهائل من الأوقاف التي أوقفت لتقديم الطعام، المسكن، وحتى الرعاية الصحية لتلك الحيوانات. ولقد لاقت هذه المعاملة للحيوانات إعجاب ودهشة كل المستشرقين الذين زاروا الدولة العثمانية، وبوصفهم تتجلى الصورة بوضوح.

يقول المؤرخ دهسون ذو الأصل ألأرمني واصفاً حقوق الحيوانات بالدولة العثمانية بهذه العبارات:

((الوقف لطيور الحمام كثيرة... إن حب الخير لديهم يشمل الحيوانات أيضا، فلا يجوز لأحد معاملة الحيوانات معاملة سيئة، تقبض عليه الشرطة سريعاً، ويمنع كذلك إرهاق الحيوانات بالشغل، ويُشاهد كل يوم في كل مكان معاملة العثمانيين الممتازة للحيوانات، لا شك إن ذلك من دواعي الشرف لديهم)).

ويضيف آخر:

((بينما نحن في المقهى... فجأة ظهرت أعداد كبيرة من القطط والكلاب في الساحة المقابلة من كل مكان، كان المنظر مخيفاً وغريباً. فجأة ظهر رجل يحمل قطعاً من اللحم، وقف بالساحة وأخذ يطعمها، وبعد انتهائه غادرت جميعها بشكل غريب بحيث لم يبق أحد. علمتُ بعدها أنها تأتي كل يوم وبنفس التوقيت لتأكل بهذا المكان)).

ويقول الرحالةِ والأديب الفرنسي الشهير جيرار دي نرفال:

((بعد خروجي من الحُرْش الذي يحيط بقِشْلة[1] المدفعية التي تغطي ساحة واسعة، وجدت نفسي في طريق "بُيُكْ دَرَة" وكان هناك مرج أخضر يمتد حتى أطراف القشلة، وعلى المرج مشهد لا يختلف كثيراً عما شاهدته من قبل إذ كان في المرج بضع مئات من الكلاب تنتظر وقد بدأ صبرها ينفد، وبينما هم كذلك إذ ظهر العساكر

1 القشلة هي مكان المعسكر او مكان مبيتهم. وقشلة المدفعية هي مبنى المدفعية.

يحملون قدورًا كبيرة معلَّقة على أكتافهم بالعِصي فبدأت الكلاب تتقافز في الهواء عندما رأتهم وكأنها تكاد تطلق صيحات الفرح، وما أنْ وُضعت القدور على الأرض حتى اندفعتْ مسرعة نحوها وكان العساكر يحاولون تفريقها إلى مجموعات بالعِصيّ التي يحملونا قال لي إيطالي كان هناك: يُطبخ هنا طعام خاص بالكلاب دائما إن هذه الحيوانات لم تكن سيئة الحظ أبدًا)).

ويضيف نفس الكاتب قائلاً:

((عندما دخلنا باحة التكية شاهدنا قطيعًا من الكلاب، كان الخدم يقدمون لها الطعام. ومنذ القدم كان الناس يخصصون التبرعات الكبيرة لرعاية الكلاب. كانت جدران التكية التي تظللها أشجار الدُّلب والأكاسيا مليئة بالأقفاص المصنوعة من الأخشاب الملونة، صنعت خصيصًا لتأتي إليها العصافير وتبني فيها أعشاشها. وكانت العصافير تتبنّى هذه المساكن المجهَّزة وتمتلكها وتعيش فيها آمنة من غير خوف ولا قلق من جوع))

كانت الكلاب والقطط في الأحياء المسلمة تأكل خبزاً خاصاً من عجين ولحم يصنعه الأهالي، أمّا في الأحياء المسيحية كانت تلاقي معاملة سيئة حسب المؤرخ فيلب مانسل.

كانت الكلاب تزداد أعدادها بشكل كبير نتيجة توفير الطعام والرفق، لدرجة أنها كانت أحياناً أكبر من عدد السكان. في عهد السلطان عبد المجيد[1] كان تعداد الكلاب في المدينة ضخم، فتم جمعها وحمّلوها بسفينة لنقلها إلى إحدى الجزر القريبة من إسطنبول، إلّا أن نباح الكلاب وعويلها أحزن الناس والسلطان فردّوها إلى المدينة.

1 السلطان عبد المجيد بن محمود الثاني 1839-1861,هو السلطان الحادي والثلاثين من آل عثمان, عرفت فترة حكمة بإكمال أعمال الإصلاح التي بدأها والده وشملت كل مفاصل الدولة. كما تميزت بكثرة التعمير والعمارة. كان جميل الوجه ورقيق, يحمل صفات الوقار والهدوء, يعتبر من أشهر خطاطي عصره.

ومع أكثر الحكومات العثمانية قسوة في عهد الاتحاد والترقي كان أقسى إجراء ضد الكلاب هو فقط جمعها ونقلها على أحد الجزر. تعدّى الإحسان للحيوانات المقيمة في المدينة فكان للطيور المهاجرة نصيب، في أواخر عهد الدولة تم افتتاح مستشفى لطيور اللقلق المهاجرة. كان تمويل إطعام الكلاب والقطط والطيور يأتي من أوقاف خصصها بعض الأهالي تتكفل بكل مصاريف الطعام وأجرة المقيمين على هذا الوقف.

سر عشق الايرلنديين للدولة العثمانية

إلى اليوم يحمل الايرلنديون في قلوبهم حب وعشق العثمانيين بشكل كبير، وسر هذا التقدير والحب يعود لعهد السلطان عبد المجيد الأول عندما اجتاحت مجاعة ضخمة ايرلندا عام 1847 مات على أثرها أكثر من مليون إنسان وتشرد مليون آخر، وألقى الايرلنديون اللوم على الدول الأوروبية ومنها بريطانيا لتقاعسها عن إغاثة شعب ايرلندا.

أعلن السلطان عبد المجيد الذي أزعجه كثيراً تلكُك الدول الغربية بتقديم المساعدة للايرلنديين نيته التبرع بعشرة ألاف جنية إسترليني، فطلبت ملكة بريطانيا فيكتوريا جعلها ألف جنيه لأنها هي نفسها لم تتبرع إلا بألفي جنيه فقط، لكن السلطان العثماني أرسل ألف جنيه ومعها ثلاثة سفن محملة بالأطعمة، وقد منعت بريطانيا دخولها لمينائي بلفاست و دبلن، إلا أن الأطعمة وصلت إلى ميناء دروكيدا على متن السفن العثمانية. لاقى شعب ايرلندا الجائع السفن بالترحيب والدموع، لأنه لم يتوقع هذه أللّفته الإنسانية من دولة غير مسيحية وتقع في أقصى الشرق. وكتعبير عن الامتنان أُرسِلت رسالة شكر محفوظة في الأرشيف العثماني اليوم إلى السلطان من وجهاء أيرلنديين لمساعدته واعترافاً بجميله. ورداً لمعروف الدولة العثمانية، أعتمد النادي الايرلندي دورغيدا لكرة القدم شعار الدولة العثمانية الذي يحتوي النجمة والهلال كشعار للنادي، وما زال هذا النادي إلى الآن يلعب في الدوري الممتاز وعلى قمصان لاعبيه شعار الدولة العثمانية النجمة والهلال.

رصاصتين

انتصرت الدولة العثمانية على روسيا في موقعة القرم الخالدة التي جرت بين أعوام 1853-1856، في عهد السلطان عبد المجيد الأول، ومع أن القادة العثمانيين الكبار أثبتوا جدارتهم وحنكتهم العسكرية، إلّا أن هناك جنوداً صغاراً ضحوا بأنفسهم لأجل وطنهم ودينهم. تعالوا نتعرف على خليل الذي في قصته نختزل سر التفوق والانتصار العثماني.

كان خليل جندي بسيط لكنه كان كبيراً بإيمانه وحبه لوطنه ودينه، يتقدم الصفوف باستمرار لشجاعته البالغة، وأستطاع هو ورفاقه سحق الكتائب الروسية ودحرها، لكن رصاصة أصابت بطنه وفتحت به فتحة كبيرة، وسقط على الأرض يلتقط أنفاسه وينادي على صديقه ورفيقه محمد الذي جاء يركض إليه. كان خليل يحاول جاهداً أن يُخرج الرصاصة من بطنه وأستطاع فعل ذلك أخيراً رغم الألم الشديد. مسك بيده الرصاصة ووضعها بيد صديقه محمد وقال له:

((يا صديقي .. ورفيق دربي، امسك هذه الرصاصة وحافظ عليها كما تحافظ على أولادك... كان والدي جندياً في جيشنا العظيم، وكنت أنا صغيراً عندما كان يقاتل الروس، وبعد إنتهاء الحرب جاء بعض أصدقائه إلينا وزفوا لنا خبر استشهاده، أخبرونا كيف كان يقاتل ببطولة وشجاعة بالغة، ثم قالوا لي وأنا صغير أنهم جاؤوا لينفذّوا وصيته ويعطونني الرصاصة التي أصابته، قالوا لي إن والدك يقول لك: ارفع رأسك بوالدك عالياً فهو شهيد الدين والوطن، وهذه الرصاصة هي مهره إلى الجنة فحافظ عليها.

يا محمد .. أن كتب الله لك البقاء ارجع إلى قريتي وسلّم على أهلي، وأخبر أبني أن أباك أستشهد وأرفع رأسك عالياً، و أعطيه هذه الرصاصة وقل له يحافظ عليها فهي مهر والدك للجنة)).

احترام السلطان عبد المجيد لسيدنا محمد عليه السلام

يشترك كل السلاطين بحبهم العميق لسيدنا محمد صلى الله عليه سلم واحترامهم الكبير للدين. والأمثلة على ذلك كثيرة، فمثلاً أثناء عمليات الإعمار والترميم للمسجد النبوي في عهد السلطان عبد المجيد غضِب السلطان عبد المجيد كثيراً من زهدي أفندي ومن المعماريين، وسبب هذا الغضب أنه عندما أمر السلطان بتعمير وترميم قبر النبي عليه السلام في المدينة، علّق المعماري طغراء[1] عبد المجيد على جدار القبر. فغضب السلطان كثير عندما عرف بهذا، وقال:

((لِمَ اسمي هناك ؟!... إذا أرادوا أن يعلّقوا الطغراء فليعلقوها برأس إصبع قدم الرسول عليه السلام، ويكتبوا المذنب عبد المجيد)).

لا تستغرب من حساسية السلطان عبد المجيد لهذا الأمر وشدة احترامه لسيدنا محمد عليه السلام فعندما تم ترميم مسجد قباء أيضاً أمر بأن لا توضع الطغراء الخاصة به على عادة السلاطين عندما ينشئوا أو يرمموا بناء، بل أمر بوضع طغراء تحمل اسم سيدنا محمد عليه السلام لان رسولنا الكريم عليه السلام هو من بنى المسجد وبكل لباقة واحترام وضِعت الطغراء العثمانية أسفل الكتابة.

أول بدوي في الولايات المتحدة

بدأت الهجرة إلى الولايات المتحدة تشتد في منتصف القرن التاسع عشر، وكسائر أوروبا هاجر الكثير من مواطني الدولة العثمانية إليها، لكن يبقى علي الحجايا هو أول شخص يهاجر لمهمة عمل، لكن ما هي مهمّة علي؟.

قبيل الحرب الأمريكية المكسيكية، أرادت القوات الأمريكية بإجراء مسح دقيق للجنوب الأمريكي الصحراوي، لذلك طلبت الحكومة الأمريكية من السفير العثماني هناك بإمكانية الحصول على جِمال من الدولة العثمانية. وبالفعل خاطب السفير

1 هو توقيع السلطان يحمل اسمه كامل, يكون على شكل رسم بدمج بين خطي الديوان والإجازة. توضع على الفرمانات أو العملات المعدنية. تلفظ طغرة وطغرا ويسميها العامة طرة.

الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد المجيد والصدر الأعظم فؤاد باشا، أرادت الدول دعم الولايات المتحد بسبب عدائها مع بريطانيا، لذلك أوعزت الحكومة للقنصل الأمريكي بالشام بشراء جمال.

تم إرسال 30 جمل مع ثلاثة خبراء بالجمال من ضمنهم علي الحجايا، وهو عثماني من صحراء الأردن. تم استقبالهم بحفاوة وانضموا إلى الجيش الأمريكي كمدربين للجمال.أثّر علي ببساطته بالناس هناك الذين أحبوه كثيراً، وأخذوا يلقبوا علي " جلي " وهو تحريف لأسمه. في عام 1857 بدأ المهندس العسكري ادوارد بل شق طريق من دفايانس بمساعدة الجمال العثمانية، لكن لوجود حصى وحجارة حادة كثيرة في طريق الجمال الصحراوي لم تنجح المهمّة، فظهرت فكرة السكة الحديد كبديل للجمال. عاد شخصان من هذه الحملة وبقي على يعيش بين الناس في أريزونا كانت أخلاقه العالية وسجيته المرحة والبسيطة محل إعجاب كل سكان المدينة. وتعلم هناك بمساعدة الأهالي التنقيب عن الذهب في المدينة، تزوج عام 1880 من غروترو سيرنا وأنجبت له ابنتين. ظلت أخلاقيات البداوة العربية الأصيلة عنده، توفي علي عام 1903، ومع أنه غير موجود في الرواية والتاريخ الأردني إلّا أنه حاضر بقوة في تاريخ أريزونا. وضع سكان المدينة نصب تذكاري على قبر علي تخليداً لذكراه، وإلى الآن توجد أغنية مشهورة من الفلكلور الأمريكي اسمها " هلو جلي " تتغنى بعلي البدوي القادم من الشرق. أعجب الأمريكيون بأخلاقيات الحاج علي المهذبة ونزاهته. كتب عنه غرغري اورفلي في كتابه "أمام ألسنة اللهب" اعتنى الأمريكيون بعلي في شيخوخته، وفي وقت لاحق مُنح وساماً وأقامت سلطة الطرق في أريزونا هرماً على قبره اعتلاه جمل نحاسي. في كل عام يحدث مهرجان في كورتسايت في أريزونا يحمل اسمه وتقام فيه سباقات الهجن وحفلات موسيقية تخليداً لذكراه.

مدينة قارص الكندية

في حرب القرم الخالدة أبدت القوات العثمانية شجاعة وصبر أعجبت وألهمت العدو قبل الصديق. كانت القوات العثمانية كبيرة لكن ليس بحجم القوات الروسية، ولأن بريطانيا وفرنسا في حاله حرب مع روسيا أرسلت بعض القوات لمساندة الدولة العثمانية. كان من بين القادة الجنرال الكندي وليام فينويك الذي قاد كتيبة من الجنود العثمانيين، كان معظم الجنود في الكتيبة من مدينة قارص، وأثناء القتال دُهِش الجنرال من الشجاعة البالغة والروح القتالية العالية للجنود واندفاعهم عند تلقي الأوامر، كان يعطي الأوامر ويقف مندهشاً من هذا الانضباط وحب الشهادة في أنفسهم. تعلم هذا الجنرال الكثير من هؤلاء الجنود البسطاء، وأخذت أخبارهم يتناقلها كل الجنود الكنديون، وتكريماً لهم وبسبب الإعجاب الشديد أطلقوا على قرية في مقاطعة أوتاوا الكندية عند عودتهم اسم قارص، على أسم المدينة العثمانية. ولعلهم كانوا آملين بأن يكون أبنائهم بالمستقبل مثل هؤلاء الشجعان.

إمبراطور فرنسا والسفير العثماني

شابت العلاقات العثمانية الفرنسية بعض التوتر في منتصف القرن التاسع عشر، وكان كثيراً ما تحدث ملاسنات في القصر الفرنسي بين إمبراطور فرنسا والسفير العثماني الموجود. حدث مرّة أثناء سفارة أحمد وفيق باشا وخلال اجتماع لبعض السفراء مع الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، أخذ السفراء بالتحدث والنقاش ببعض الأمور. فقال أحمد وفيق باشا كلاماً لم يعجب الإمبراطور الفرنسي، فردّ الإمبراطور نابليون الثالث بكلام جارح ساخراً من أحمد باشا قصد به أنه سفير ضعيف وليس بمستوى السفراء العثمانيين القدماء، فقال:

((أتحسب نفسك سفير السلطان سليم الأول))

فرد عليه السفير أحمد باشا رداً سريعاً، حيث قال:

((هذا صحيح يا سيدي... لو كان السلطان سليم موجود ربما لم يبعثني كسفير، لكن صدقني لو كان موجوداً لما كنت أنت أيضاً جالساً هنا)).

يا حفيظ

كان فؤاد باشا أحد أهم رجال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز[1]. ولكفاءته العالية شغل الكثير من المناصب، كان رحمه الله سريع البديهة ودبلوماسياً لامعاً. في أحدى الأيام الصيفية الجميلة أثناء شغله كوزير للخارجية كان يتجول مع السفير الانجليزي في شوارع إسطنبول لمناقشة بعض الأمور الخارجية. لفت انتباه السفير الانجليزي عبارة " يا حفيظ " مكتوبة أو محفورة على أبواب كل بيت يمرون به، وهي عادة عثمانية بتعليق بعض عبارات التوسل لله وطلب الرحمة، فقال السفير لفؤاد باشا:

((يا باشا.. لاحظت أثناء مسيرنا عبارة مكتوبة على كل أبواب البيوت.! ما هو هذا المكتوب ؟!)).

ضحك فؤاد باشا، وقال له:

((هذه اسم شركة التأمين التي تحمي البيوت)).

هز السفير الانجليزي رأسه، وعرف أن فؤاد باشا أجابه بدبلوماسية وباللغة التي هو يفهمها.

إحترام السلطان عبد العزيز لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

كان السلطان عبد العزيز كسائر السلاطين بحبهم واحترامهم للمقدسات ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكان شديد الحساسية بتناول أي موضوع يخص المقدسات الإسلامية. ومما أثر عن السلطان أنه كان لا يتناول أي ملف أو أوراق قادمة من المدينة المنورة دون أن يجدد الوضوء. لأن هذه الأوراق بالنسبة له تحمل غبار بلدة الرسول صلى الله عليه وسلم ورائحته العطرة. لذا كان يقبلها أولاً ثم يضعها على جبينه ثم يشمها بحرارة ثم يفتحها ليقرأها.

---

1 السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الأول 1861-1876, هو السلطان الثاني والثلاثين من سلاطين آل عثمان, شاعر وموسيقي من الطراز الأول, عرف بعصبيته الشديدة وقوته البدنية.

في إحدى الأيام وصلت رسالة إلى القصر من المدينة المنورة، وكان السلطان في تلك اللحظة مصاباً بمرض شديد أقعده في الفراش. فتردد رجال الدولة بادئ الأمر في تقديم الرسالة إلى السلطان عبد العزيز بسبب مرضه هذا، ولكنهم كانوا يعرفون في الوقت نفسه، مدى حساسيته تجاه المدينة المنورة وحبه لها، فاضطروا إلى تقديمها له في نهاية الأمر. وعندما اقترب الوزير منه وأخبره أن رسالة وصلت من المدينة المنورة، لمعت عينا السلطان وطلب من الوزير ألا يبدأ بالقراءة حتى يأمره بذلك، ثم قال لمن حوله:

((ارفعوني.. فلا يمكن أن أسمع رسالة وصلت من الأراضي المقدسة وأنا نائم)).

واستمع إلى ما في الرسالة واقفا على رجليه رغم وطأة المرض .

سرعة بديهه

لمّا زار السلطان عبد العزيز فرنسا عام 1867، كان ممن رافقه الأميران مراد الخامس وعبد الحميد الثاني ووزير الخارجية فؤاد باشا.

أقام الإمبراطور الفرنسي حفلة عشاء على شرف السلطان عبد العزيز، تخلل العشاء الكثير من الحديث الممتع ومناقشة العلاقات بين البلدين. لكن خلال هذه الزيارة كانت الأوضاع في جزيرة كريت مشتعلة بسبب أعمال الشغب التي تقوم بها العصابات اليونانية المطالبة بالاستقلال. وأثناء الجلسة نظر إمبراطور فرنسا إلى الوزير فؤاد باشا وسأله الإمبراطور بطريقه المزاح وهو يُخفي طمعهُ الحقيقي:

((يا باشا لو أردتم بيع جزيرة كريت فكم تريدون ثمناً لها)).

وهنا تظهر الدبلوماسية وسرعه البديهة عند فؤاد باشا، فقال بشكل سريع وبنفس أسلوب المزاح:

((يا جلاله الإمبراطور... نحن لا نريد الربح، فقط نريد نفس الثمن الذي دفعناه)).

سكت الإمبراطور الفرنسي بهذا الجواب القوي، لأنه يعرف أن الدولة العثمانية دفعت ثمناً للجزيرة الآلاف من أرواح الشهداء وحروب كثيرة لإخضاع الجزيرة تحت الحكم العثماني.

السلطان صانع السفن

كانت تشكل القوة البحرية أحد أهم أذرع القوة للدولة العثمانية طيلة فترة حكمها، لكنها تعرضت للتدمير في موقعة نفارين عام 1827 على يد تحالف دول بريطانيا، وفرنسا، وروسيا. ومع أن السلطان محمود الأول وعبد المجيد حاولوا إرجاع الأسطول لسابق عهده، إلّا أن السلطان عبد العزيز هو باني البحرية العثمانية الحديثة بامتياز.

كان لتراجع وضعف البحرية العثمانية بعد هذه الحادثة الأثر الكبير في نفس السلطان عبد العزيز الذي إنكبّ على دراسة هندسة السفن والقراءة، وتميز عن باقي السلاطين بشغفه وحبه للبحرية. أعطى أوامره ببداية مرحلة جديدة بتكوين أسطول بحري بعد اكتشاف المحرك البخاري، فبنى سفناً حربية كبيرة وكثيرة، وأصبحت الدولة تملك ثالث أقوى أسطول بحري بالعالم بعهد هذا السلطان.

لا يتوقف دور السلطان إلى هذا الحد في تطوير البحرية، فحدث مرة بعد أن قدّم المهندسون له مخططات لسفينة حربية ضخمة هي " مسعودية[1] " رسمها المهندسون العثمانيون، أخذ يقلّب أوراق التصميم وبعد شرح المهندسون أخرج قلم وأخذ يعدّل ويضيف بعض الأمور، وأرسلت تلك المخططات الجديدة إلى حوض تايمز لبناء السفن في انجلترا.

دهش المهندسون هناك من الإضافات والتعديلات، وقالوا:

((إذا نُفِّذت هذه التعديلات والإضافات فإن هذه السفينة العثمانية سوف تتفوق على أعظم سفينة لدينا " كلارندن ")).

فسألوا السفارة الانجليزية في إسطنبول عمّن أجرى هذه التعديلات، فوصل الجواب:

1 كانت أسماء السفن مأخوذه من أسماء مناطق عثمانية مثال ذلك السفينة لبنان, المنصورة, مدللي. وهناك سفن من أسماء شخصيات عثمانية مثل أطغرل, باربروسا. او من أسماء سلاطين مثل حميدية, مجيدية, محمودية.

" رسمها وعدلها السلطان العثماني نفسه ".

أنتم من الخارج ونحن من الداخل

أقيم حفل لوزراء الخارجية حضره كل من وزراء خارجية بريطانيا وروسيا وبروسيا "ألمانيا" وفرنسا والنمسا بالإضافة إلى فؤاد باشا وزير الخارجية العثمانية وسفراء وقناصل دول أخرى..

وفي هذه ألسهره طُرح سؤال: " من هي أقوى دولة في العالم؟ ".

فأخذ يجيب كل واحد بجواب مختلف فمنهم من رأى بريطانيا، ومنهم من قال فرنسا، إلى أن وصل الرد إلى فؤاد باشا الذي قال:

((الدولة العثمانية هي أقوى دوله في العالم ...!)).

مع أن الدولة العثمانية كانت من الدول العظمى في ذلك الوقت، لكن يتفق الجميع أن مكانتها تراجعت وأصبحت أضعف الأقوياء. لذلك استغرب كل الحاضرين وأخذوا ينظرون إلى فؤاد باشا باستهجان، إذ كيف تكون الدولة العثمانية هي الأقوى؟!. فقال فؤاد باشا:

((لا تستغربوا... الدولة العثمانية فعلاً هي الأقوى. إنها تحمّلت ما لم يتحمله أحد، فطيلة ثلاثمائة عام وانتم تحاربونها مجتمعين من الخارج، ونحن بأخطائنا من الداخل، وما زالت قويه ثابتة، لذلك يا سادة صدقوني أنها الاقوى)).

الأميرة الملاك علويّة

هذهِ القصة الحزينة التي سنرويها عن الأميرة علوية ابنة السلطان عبد الحميد الثاني[1] وكيف أن موتها كان له الأثر الكبير على السلطان عبد الحميد. الأميرة علوية هي أول مولود للسلطان عبد الحميد عام 1868 أثناء إمارتهِ وخلافة عمهِ السلطان عبد العزيز. كانت وِلادتها باعثاً لفرح السلطان عبد الحميد. فكان شديد التعلق بها لدرجة لا تصدق، كما كان أخوه مراد أفندي[2] ولي العهد وأخوه برهان الدين يحبّان الأميرة علوية كثيراً، ولا يجدان سبيلاً لتبادل هذا الحب، فكانا يأخذانها للنزهة ويشتريان لها يومياً. كانت الأميرة علوية غاية في الرقة والجمال ويفوق عقلُها سنها، بدأت الأميرة في تعلم القراءة وفي يوم من الأيام عادت الى المنزل بعد إكمال الدروس، فدخلت على حجرة أمها التي كانت تعزف على البيانو، فوجدت الصغيرة كبريتاً بالشمع على المنضدة كانوا قد اخترعوه حديثاً، تناولتها وشرعت تلعب به وكان شعرها منسدلاً على كتفيها، وكانت أمها منشغلة بالعزف على البيانو والصغيرة تلعب خلفها. اشتعلت النار بالفستان وبشعرها، فلم ترها المسكينة أول الأمر لكي تسعفها، فلما سمعت الصراخ هرعت تركض إلى ابنتها وألقت بنفسها عليها تحاول ان تطفئ النار بيديها. غير أنها لم تستطع فعل شيء، وكان الوقت وقت غداء فلم يكن أحد

1 السلطان عبد الحميد بن السلطان عبد المجيد 1876-1909, هو السلطان الرابع والثلاثون من آل عثمان. أشهر السلاطين وأقواهم على الإطلاق, تسلم الحكم بظروف حرجة جداً. عرف عنه الدهاء والذكاء, استطاع اللعب على التوازنات الدولية وإنقاذ الدولة من الانهيار. أمسك كل مقاليد الحكم بيده لدرجة أنه قيل " لا تخفى عنه نملة " هادئ ورزين غاية في الأدب والأخلاق الإسلامية التي تربى عليها. حاول أحياء الأمة ضد الاستعمار عن طريق نشر الجامعة الإسلامية, جاء في الوقت الخاطئ كما قال بعض الساسة والمؤرخين.

2 هو السلطان مراد الخامس بن السلطان عبد المجيد الأول " مايو 1976- أغسطس 1876" هو السلطان الثالث والثلاثين من آل عثمان, ومن أقصرهم حكماً. تعرض لوعكة نفسية بعد مقتل السلطان عبد العزيز واستلامه الحكم, فانتقلت السلطنة على أثر ذلك لأخيه الأصغر عبد الحميد الثاني. عرف بثقافته العالية وشخصيته المرحة.

بالطابق العلوي لينقذها. وبينما تعمل هي على إخماد النار تسقط هـي والطفلـة عـلى الأرض وتتدحرجان وتلتهم النار يديها ووجهـا الجميـل ومـع ذلـك لم تسـتطع إخمادهـا، وكان في الصـالون ببغـاء عنـدما شـاهدت النـار راحـت تُطلـق صـيحات مزعجـة نبّهـت الموجودين بالأسفل الذين هرعوا للمكان. صُعق كـل الموجـودين مـن المنظـر وتسـمّروا واقفين، وركضت إحدى الخادمات وحملت سجادة وألقتها على الطفلة المسكينة التـي لم يبق بها رمق. واستدعوا الأطباء بالحال كما نادوا عمّها مراد أفندي.

في هذه اللحظات العصيبة كان السلطان عبد الحميد في طرابيا في البحـر، فأرسـل له مراد أفندي أحد القوارب ليحضر بسرعـة، كـما أرسـل في المدينـة " ليـأتي كـل طبيـب يستطيع أن ينقذ الطفلة ". ولما وصل عبد الحميد السراي اسـتقبله عنـد الرصـيف مـراد وإخوته الآخرين، وعانقه مراد أفندي وقال له:

((إن الأميرة، في وعكة صحية)).

فهرع عبد الحميد يركض إلى غرفه ابنته، فلما رآها ترقد وقد غطّـوا كـل جسـمها عدا وجهها شعر باضطراب، ففتحت البنت عينيها وقالت وكأنها تستنجد به ليساعدها:

((بابا... بابا))

ثم أسلمت روحها إلى بارئها، وعندها سقط عبد الحميد على الأرض مغشياً عليـه. فتم نقله إلى قصر برستو قادين في حي ماجقا. وقام السلطان عبـد العزيـز بعمـل الـلازم وأرسل إلى عبد الحميد برسالة تعزية. هذه الحادث المؤلمة كانت من أكثر الحوادث التي اثّرت بالسلطان، وكان يقول دوماً لبناته في ما بعد وهو سلطان:

" إنني لم أتعلق بأحد في حياتي من بين كل أولادي مثل علوية رحمها اللـه ".

صفعة أمام قصر بيلاربي

زارت الملكة الفرنسية أوجيني اسطنبول في عهد السلطان عبد العزيز قبيل الذهاب للمشاركة في حفل افتتاح قناة السويس، أستقبل السلطان الملكة في قصره، وبعد الترحيب والحديث معها أنطلق بها إلى المكان المخصص لإقامتها وهو قصر بيلار بي[1] على البوسفور حيث تنتظرهما هناك السلطانة الوالدة، وعند وصولهما اتكأت أوجيني على كتف السلطان أثناء صعود الدرج. اعتبرت السلطانة الوالدة هذا قله أدب وعدم احتشام ومنافيا للبروتوكول الملكي، فقامت بصفعها على خدّها لتجاسرها ولمس السلطان بهذه الطريقة. ومع أن الإمبراطورة أوجيني استُقبِلَت بصفعه إلا أنها تأثرت جدا بسحر استانبول ومصر والقصر الذي صفعت به وذهلت لهول وجمال ما رأته من هذا القصر، فتغنت بأناقته وروعة تصميمه لدرجة أنها نقلت تصميم النوافذ الموجودة في غرفة الضيوف لتبني مثلها تماماً في غرفة نومها في قصر التويلري في باريس.

نحن لا نهرب ولكن نقاتل حتى آخر رمق

أثناء الحرب العثمانية الروسية السابعة[2] كان الوضع خطير جداً، فجحافل القوات الروسية تعبر الأراضي العثمانية بمئات الآلاف وتساندها قوات صربية وبلغارية ورومانية. وحتى كل جيوش الدولة العثمانية الـ 160 ألف المتواجدة بالبلقان لا تستطيع صد الهجوم المرعب. كانت التعليمات واضحة والأوامر صارمة إلى

1 قصر صيفي يقع على الجانب الأسيوي من البوسفور, بني في عهد السلطان عبد العزيز عام 1869, بني على طراز العمارة المدموجة بين الشرق والغرب. وبيلر بي تعني سيد الأسياد وهي اسم المنطقة التي بني بها, ويسمى باللسان العربي بكلر بك.

2 هي حرب أعلنتها الدول العثمانية على روسيا رغم معارضة السلطان عبد الحميد الثاني عام 1877, وتسمى حرب 93. جاءت بسبب التدخل الروسي في البلقان وشؤون الدولة العثمانية. كانت الخسارة الفادحة للدولة بسبب عدم جاهزيتها أمام الروس.

البطل عثمان نوري باشا بالتوجه لصد الجيش الروسي أو تأخيره لتدارك الوضع سياسيا. عثمان تصله التعليمات ويسير بجيشه الصغير المكون من 20 ألف عثماني فقط. يصل إلى مدينه بليفنا قبل الروس، وهي موقع استراتيجي كونها مركز خطوط النقل والاتصالات في شمال بلغاريا. فيقوم سريعاً بالتخندق ونشر المدفعية ويضع خطط دفاعية صنعها الباشا بنفسه أذهلت الروس الذي وصلوا متأخرين.

حاصرت الجيوش الروسية المُقدّرة بمئات الآلاف المدينة، والهجوم مستمر وعثمان ورفاقه يضربون أقوى الأمثلة بالصبر والشدة. عشرات الآلاف تسقط من الجانب الروسي والإمدادات مستمرة وتم الاستعانة ببعض الوحدات الرومانية. وصل القيصر بنفسه للوقوف على المعركة وأخذ يبكي عندما شاهد جيشه يُقتّل على أيدي جنود عثمان باشا. وبعد الكثير من محاولات الاقتحام والهجوم ورغم الخسائر الكبيرة في الجيوش الروسية استطاعوا أخيراً من قطع خطوط الإمداد للجيش العثماني.

بعد خمسة شهور من القتال أُجبر عثمان على الاستسلام بسبب شح الإمدادات والإصابة الخطيرة التي تعرض لها. وقع البطل في الأسر، وتم إحضاره إلى القائد الروسي الدوق الأكبر نيكولاس وسط تصفيق ونظرات الإعجاب من الجنود الروس، كان يمشي وهو يعرج بسبب الإصابة بقدمه اليسرى، فقال له:

((أود أن أهنئكم على نجاحكم في الدفاع عن بليفنا هذا الدفاع هو واحد من ألمع الحوادث العسكرية في التاريخ الدفاعي)).

وبأمر من القيصر الروسي في اليوم التالي ذهب عثمان إلى القيصر الكسندر الثاني فسأله بعد أن وقف مرحباً به:

((إنني أهنيكم بدفاعكم الرائع.... لقد أذهلتني بقتالك ودفاعك العظيم، لكن لماذا لم تستسلم عاجلاً وأنت تعلم أنك سوف تخسر بالنهاية ؟))

فأجاب عثمان:

((إن دولتي أعطتني هذا السلاح لكي نقاتل به أعدائنا، وليس لنسلمه لهم، فنحن لا نهرب ولكن نقاتل حتى آخر رمق)).

تبسّم القيصر وفي قلبه الكثير من الإعجاب ثم أرجع لعثمان سيفه في إشارة

على الاحترام الشديد.

قاهرة الروس نينة خاتون

سوف نروي الآن قصة ليست كباقي القصص، فبطلتنا ليست كأبطال القصص والروايات. إنها المرأة العثمانية التي يعرفها الروس جيدا إلى يومنا هذا، إنها نينة خاتون.

كانت تعيش في حي من أحياء أرضروم يُعرف باسم العزيزية، وكان هذا الحي يقع بالقرب من أحد الحصون الهامة التي كانت تدافع عن المدينة ضد جحافل الجيوش الروسية، وفي ليلة السابع من نوفمبر عام 1877، قام الجيش الروسي بالاستيلاء على حصن العزيزية بعد أن قتل كل الحامية العثمانية التي استبسلت في القتال. وكان لدى نينة خاتون شقيق يدعى حسن توفي متأثراً بجراح شديدة للغاية في مساء هذا اليوم. وفي الصباح عندما وصل إليها خبر استيلاء الروس على حصن العزيزية، قبّلت شقيقها المتوفى وأقسمت أن تنتقم لموته ولله وللوطن الجريح. تركت نينة وراءها في المنزل ابنتها الصغيرة ذات الأشهر الثلاثة ودموعها تمتزج بدموع ابنتها التي ستفارقها، وانضمت إلى الأهالي الذين قرروا لقاء العدو انتقاماً للدين والوطن ولشباب الجيش الذين قاتلوا حتى قُتلوا. اصطحبت معها بندقية شقيقها المتوفى، بالإضافة إلى فأس صغيرة. ومع أن الهجمات قام بها المدنيون العثمانيون ومعظمهم من النساء وكبار السن المسلحين بالفؤوس ومعدات الزراعة إلا أنها كانت في عيون الجيش الروسي أقوى من جيوش الدنيا. زحف الأهالي بسلاحهم البسيط لمواجهه الترسانة الروسية وفي مقدمتهم نينة خاتون التي أخذت تركض حتى سبقت الأهالي في الهجوم. في نظرهم هي معها فأس وبندقية فقط، لكنها كانت ترى أن الله معهم ضد الظلم والاحتلال.

تجهز الجيش الروسي وهو يرتجف فهو لا يقابل جيش ولا أسلحة ثقيلة ،إنه يقابل قلوب كالجبال والحديد ابتدأ القتال و قُتل مئات من المدنيين العثمانيين برصاص الجانب الروسي ولكن غلب الإصرار والحق في النهاية، واستطاعوا دخول الحصون بعد أن كسروا أبوابها الحديدية. وأسفر القتال الذي دار بالأيدي والفؤوس والسكاكين

عن مقتل نحو 2000 جندي روسي وهرب بقية الجنود الروس. وعندما عُثر على نينة خاتون كانت فاقدة الوعي ومصابة، وكانت يداها المخضبتان بالدماء لا تزال تقبضان بشدة على فأسها. كانت نينة خاتون باعتراف الجميع هي الأكثر بطولية، وأصبحت رمزًا للشجاعة ليس في تركيا فقط بل في روسيا والعالم أيضا. لما زار الجنرال الأمريكي ريدجواي تركيا في عام 1952 أصر على رؤيتها، وعندما سألها عما إذا كان من الممكن أن تشارك في حرب جديدة ؟ أجابته بقولها "بالتأكيد سأفعل ".

عُرفت نينة خاتون باسم " أم الجيش الثالث ". وحصلت على لقب " أم الأمهات " وتوفيت عام 1955.

الفقير والسلطان عبد الحميد

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني كان هناك موظف فقير يعمل براتب ضئيل في مؤسسات الدولة، لم يكن هذا الراتب يكفيه لإعاشته وإعاشة أهله. كانت زوجته حاملاً وعلى وشك الولادة، وفي ليلةِ شتاءٍ قارس تبدأ فجأة آلام المخاض والتوجعات، يرتبك الرجل ولم يعرف ماذا يفعل، إذ لم يكن لحظتها يملك ولا درهمًا واحدًا، كيف سيحضر الطبيب؟ ومن أين سيأتي بالنقود؟. وهو يدور في وسط الغرفة بانفعال وقلق، وزوجته المسكينة تصيح من الألم وهو مكبل اليدين، فيهديه تفكيره إلى الاتصال بقصر السلطان، يُسرع إلى البريد ويرسل برقية إلى السلطان يعرض فيها وضعة المعيشي السيئ وكيف أنه لا يقدر على توفير نقود لزوجته التي تصيح من شدة الألم. تصل البرقية إلى القصر، ويتم عرضها إلى السلطان مباشرة. تأثّر السلطان عبد الحميد الثاني تأثرًا شديدًا مما سمع، فلم يعد يتحمل، فشدّ الرسالة من يد القارئ وبدأ يمرر نظره عليها بحزن وغمّ، وتغيّرت ملامحه الرقيقة، واصفرّ لونه من شدة الخطب، ثم أطرق رأسه وقال وعيونه مغرورقة بالدموع:

((ربّاه... أعنّي على مؤازرة هؤلاء المساكين، ولا تجعلني من الرعاة الذين لا

يبالون برعيتهم، ولا يهتمون بأمورهم، يا رب)).

ثم أمر السلطان نادر أغا الذي يروي القصة أن يجهّز سيارة إسعاف القصر على الفور، وأن يأخذ طبيب القصر الخاص به، وبعض الممرضات والدايات، تلبية لنجدة ذلك المسكين، وطلب منه أن يخبره بكل ما يحدث بالسرعة القصوى. فأخذ نادر أغا معه " باسِم عمر" طبيب القصر، و" جميل باشا " مسيّر شؤون القصر، والدايات، واتجهوا جميعًا نحو بيت الرجل مسرعين. وعندما عاد نادر أغا إلى القصر قبيل الفجر، وجد السلطان عبد الحميد ما زال ينتظر بفارغ الصبر، كان الإرهاق والتعب بادٍ عليه بسبب التفكير بحال الرجل الفقير ومصير زوجته الحامل. يقول نادر أغا:

((فبشّرته بأن المرأة وَلدتْ ذكرًا وجههُ كالبدر ليلة التمام، وأن أباه سمّاه عبد الحميد، وأن المرأة بكمال الصحة والعافية، وأنهما يدعوان لكَ بالخير وطول العمر)).

عندها أشرق وجهه بابتسامة، حمد الله وأثنى عليه على ما أولاه من نعمة، ثم بهدوء دخل إلى غرفته للاستراحة.

الساعة الضائعة

حدث في ولاية احمد وفيق باشا على بورصة 1879-1882، في عهد السلطان عبد الحميد أن جاءته امرأة عجوز. فدخلت عليه وقالت له أمام الحضور:

((يا أيها الوالي لقد أضعتُ ساعتي وهي ساعة غالية علي كثيراً ولقد ورِثتُها عن والدي، ولقد سمعت أن لديك نظارات سحرية تلبسها وترى من خلالها كل شيء مفقود، فهل لبستها كرامة لعمتك العجوز)).

فقال لها:

((حسنا يا عمه ما هي أوصاف ساعتك؟)).

فأخبرته بأوصافها بالتفصيل، فقال لها:

((حسناً.. يا عمّه سوف البسها الليلة وابحث عنها. أذهبي إلى بيتك ألان وعودي غدا)).

انصرفت العجوز، فقال الوالي وفيق باشا للحضور:

((هذه العمّة مسكينة، لكنها عرفت كيف تستعيد ساعتها)).

فأمر الوالي أحد رجاله أن يذهب للسوق ويشتري ساعة بأوصاف الساعة الضائعة. وفي اليوم التالي عادت العجوز، ودخلت على الوالي أحمد باشا فأعطاها الساعة وقال لها:

((يا عمه... لقد لبست النظارات البارحة ووجدت ساعتك، ولكنني أضعت نظاراتي السحرية. فاحترسي بعد اليوم على أغراضك فلن أستطيع أن أجد أي شيء ضائع لك)).

السفينة الحربية أرتغرول

دأب السلطان عبد الحميد على توطيد العلاقات العثمانية اليابانية، وذلك بعد ظهور الإمبراطورية اليابانية كقوة عالمية لا يستهان بها في الشرق.في عام 1890 أرسل السلطان عبد الحميد الثاني على متن السفينة الحربية أرتغرول التابعة للدولة العثمانية وفداً رفيع المستوى مكون من 650 شخص على رأسه شقيق السلطان وشخصيات رفيعة المستوى. كان هدف الزيارة هو إرسال إشارة إلى روسيا بالعلاقة المتميزة مع الإمبراطورية اليابانية. وإرسال الهدايا إلى الإمبراطور وتسليمه وسام الشرف الرفيع للدولة العثمانية.

وبالفعل استُقبِل الوفد استقبالاً حاراً من الإمبراطور والشعب الذي تكدّس لرؤية الأصدقاء القادمين من أقصى الدنيا. مكث الوفد في ضيافة اليابانيين مدة من الزمن، واستطاعوا من تطوير العلاقات وتوطيدها. في طريق العودة وبعد يوم من الانطلاق تعرضّت السفينة إلى الغرق لاصطدامها بالشعب المرجانية بسبب إعصار قوي، وتوفي 533 من طاقمها 50 منهم ضابطا ومن بينهم الأدميرال علي عثمان باشا. كانت هذه الحادثة المروّعة صعبة جدا على الدولة العثمانية والسلطان.

تلقت اليابان الخبر بالذعر وخرج الشعب باكيا في الشوارع، وانطلقت كل

السفن لإغاثة ارتغرول بأمر من الإمبراطور الذي وقف على عملية الإنقاذ، انتشرت الأخبار بالصحف وأنتشر الحِداد بين الأهالي على أصدقاء الدولة الذين جاوؤا من أقاصي البلاد. وتعبيراً عن حزنهم ووقوفهم بجانب العثمانيين، قام الأهالي في اليابان بجمع التبرعات إلى أهالي الضحايا في الدولة العثمانية. وكانت الحادثة هي بدء العلاقات الرسمية بين الخلافة العثمانية والإمبراطورية اليابانية. كما أدت هذه الحادثة إلى دخول الكثير من سكان اليابان بالإسلام بسبب قراءتهم عن الدولة العثمانية والإسلام.

وفد السفينة أرتغرول أدى المهمة على أكمل وجه إلّا أن الحادثة المأساوية كان لها الأثر الأكبر في تطور العلاقات بين البلدين.

الروبوت العثماني علامات

قد يبدو هذا العنوان للوهلة الأولى ترفاً تاريخياً، لكن شئنا أم أبينا هذه حقيقة تاريخية وحدثت فعلاً. فما زلنا إلى اليوم نكشف الكثير عن خبايا الدولة العثمانية المجهولة. في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت أول فكرة بشريه لصنع آلة متحركة تحاكي الإنسان في الشكل والسلوك، ومع أن ألمانيا تفوقت على كل الدول في هذا المجال، إلا أن الدولة العثمانية أيضا كانت في وسط المنافسة.

أستطاع المهندسون العثمانيون صنع روبوت سُمي علامات في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر ومن أجل التقرّب من اليابان القوة الصاعدة في الشرق، تم إهداء هذا الروبوت من قِبل السلطان عبد الحميد الثاني للإمبراطور الياباني الذي أُعجِب بهذا السحر وأخذ هو والوزراء وسكان القصر يحدقون بهذا الخيال العلمي لساعات طويلة. كما كانت هناك نسخه من الروبوت علامات في قصر يلدز، لكن حرق وتعطل في أحداث الانقلاب العسكري على السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909.

علامات كان قادرا على تحديد الوقت وإصدار أصوات تشبه الآذان عند حلول

الصلاة، كما أنه كان قادرا على السير لعده أمتار، ويتم شحنه يدوياً. اكتُشِف رسم في كتاب عثماني بالأرشيف يصور جيشاً من الروبوتات تقاتل باسم الدولة العثمانية على الجبهة ضد الأعداء بعد اكتشاف علامات، لم تكن هذه أحلام يقظة لمؤلف الكتاب، بل هو تصرف طبيعي لطموحات الدول الكبرى تماماً كفكرة العيش على المريخ هذه الأيام. لم تكن اليابان عندما شاهدت علامات تعرف ما هو الروبوت، لكن لا شك أن هذه الهدية ألهمت اليابان التي أصبحت اليوم رائدة الروبوتات.

السلطان عبد الحميد والحصان العربي الشهير فرحان

الكل يعرف أن السلطان عبد الحميد الثاني كان يحب الخيول كثيراً وخاصةً تلك العربية. ولعل أكثر حصان أحبه السلطان هو " فرحان ". لكن ما هو سبب هذا الحب و وما هو سبب شهرة هذا الحصان ؟!.

كان الحصان فرحان وهو حصان كحيلان ابيض، يعود لأحد شيوخ العشائر التي تسكن العراق بالقرب من بغداد، كان جميلاً وقوياً جداً ومشهوراً أيضا. ومما زاد من شهرة هذا الحصان أنه في يوم من الأيام حصلت خلافات أدت إلى قتال بين قبيلة هذا الشيخ وقبيلة أخرى، فإخترقت رصاصة جسد الشيخ فأردته صريعاً على الأرض وسقط مغشياً عليه عن حصانه فرحان. وهنا تبرز الأصالة الرائعة لدى فرحان الذي لم يهرب تحت صوت الرصاص والقتال فأخذ يعض ثوب الشيخ بأسنانه ويسحبه خارج المعركة، وبالفعل نجح بجر الشيخ إلى مكان بعيد وآمن ثم إنطلق ليطلب النجدة من أهله، وهكذا إستطاع أن ينقذ صاحبه من الموت.

انتشرت هذه القصة الرائعة وأخبار هذا الحصان الأصيل بين كل القبائل العربية، حتى وصلت إلى مسامع السلطان عبد الحميد الثاني. في هذا الوقت التي كانت تعانية البلد من خيانات ومؤامرات، شعر السلطان بحب هذا الحصان الذي لم يشاهده، فأرسل السلطان أحد رجاله ليستقصى أمر هذا الحصان ويشتريه من صاحبه مهما غلا ثمنه. ومع أن الحصان لا يقدر بثمن بالنسبة للشيخ، إلا أنه أهداه للسلطان عبد

الحميد الثاني عندما علم أن السـلطان أحبـه ويريـده. وبالفعـل وصـل فرحـان الحصـان العربي الأصيل الأبيض إلى قصر السلطان، ليصبح بعدها الحصان المفضـل والأول بالنسـبة للسلطان حميد.

البحّار صالح

كانت إسطنبول تعج بمراكب النقل والتوصيل بين ضـفافها، وكانـت الحركـة قويـة على البوسفور والقرن الذهبي. من بين هؤلاء العـمال كـان شـخص يـدعى صـالح عُـرف بروحه المرحة وشهرته العالية بين سكان اسطنبول، لكن ما جعل صـالح مشـهوراً ليسـت هذه الروح ولا حتى مهارته في نقل الركاب، إنما يعود السبب لتعرضه لحـوادث كثـيرة في البحر ونجا منها جميعاً، فلقد تعرض لاصـطدام، وريـاح قويـة، وعواصـف، وفي كـل مـرّة يغرق القارب وينجو صالح برحمة الـلـه، حتى وصلت الحوادث التي تعرض لها خمسـة عشر مرة. إنتشرت قصته داخل كل اسـطنبول، وأخـذ النـاس يتـداولون سـيرته وينادونـه بالشخص الذي لا يغرق. أثّر هذا على صالح وأخذ يتباهى بين الناس ويقول:

((أنا الذي لا أموت غرقاً)).

وفي يوم من الأيام وأثناء راحتـه مـن العمـل، جلـس في إحـدى المقـاهي كالعـادة وطلب فنجان من القهوة. وعندما أخذ يشرب من كأس الماء غص ولم يستطع أن يتـنفس ومات على أثر ذلك غرقاً برشفة ماء صغيرة، فسبحان الـلـه.

السلطان عبد الحميد والنقاب

يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني رغـم تدينـه الشـديد مـن أكـثر السـلاطين أيضـاً الذي حاربوا الإنحلال والسفور، ومواقفه كثيرة وكبيرة في هذا الشأن. وكثيراً ما كان ينتقـد أمام وزرائه وأعوانه حياه الانحلال التي يعيشـها الغـرب ويتحمّـد الـلــه دومـاً أن هـذه الآفات لم تتغلغل بين شعبه، فذكر في مذكراته مثلاً:

((فيم يتهجّم الأوروبيون على نسائنا؟ هل هناك مجـال لمقارنـة أخـلاق نسـائهم

بأخلاق نسائنا؟ أليست المرأة الشرقية أوفى وأصدق وأجمل من المرأة الأوروبية؟ المرأة عندنا تهب نفسها لبيتها، وترتبط بزوجها، أما الأوروبية فحريتها الزائدة تحرمها كثيرا من صفات الأنوثة. إذا فرضنا أن نصف ما يكتب في أوروبا ويُنشر في صحفِها صحيح فما علينا إلّا أن نشفق على الرجال الأوروبيين. إنّي أرى النساء الأوروبيات في الاستقبالات، بنظراتهن المتعجرفة فأقارنهن بالنساء المسلمات، فتترجح عندي كفة النساء المسلمات)).

وفي فترة حكمه فرض لبس الخمار ومنع كشف الوجه للنساء وأعطى مهله ثلاثة أشهر من توزيع الفرمان الذي أصدره وعُلّق في كل مكان، وسيكون من حق الشرطة أن تتخذ كل الإجراءات من أجل تطبيق هذا القانون.

وتذكر ابنته الأميرة عائشة في مذكراتها هذه القصة التي تبيّن أيضاً مدى اهتمام السلطان واحترامه للنقاب، حيث تقول:

((كنت قد بلغت الحادية عشر، غير أنني كنت طويلة ينخدع في سني من يراني، وذات مرة خرجت للاشتراك في مراسم تحية يوم الجمعة، ولن أنسى ذلك مطلقاً.

إذ ارتديت في ذلك اليوم فستانا وردياً، وبينما كان والدي يخرج من الجامع توقف قليلاً على السلم وتطلع نحو العربات. ولم يكن من العادة أن يحيي السلطان أحداً داخل عربات الحريم، وكنت أنا لهذا السبب أطل برأسي من نافذة العربة وأنظر منها ضاحكة. وفي ذلك اليوم قاد والدي عربته إلى السراي، وفي المساء وهو يجلس مع والدتي للطعام قال لها: رأيت اليوم ابنتي في العربة، إنها تبدو من بعيد أكبر من سنها، ومن لا يعرفها يظنها فتاة كبيرة، ومن الآن يجب أن تستخدم النقاب اعتباراً من الأسبوع القادم، وعليها أن لا تخرج بعد اليوم مكشوفة الوجه.

اعترضت والدتي وقالت: ولكن يا أفندينا كيف هذا؟ إن سنها صغير..؟

إلّا أنه قال: زوجتي، هل تظنين أنهم لن يقولوا أنني تركتها مكشوفة الوجه؟ ألن تستخدمه يوماً من الأيام؟ وإذا كان ذلك فعليها أن تتعود عليه من الآن)).

الخلافة بالنسبة للغرب

يذكر الشاعر والكاتب التركي الشهير رضا توفيـق - أحـد أعضـاء الاتحـاد والترقـي ومن أشد المعارضين للسلطان عبد الحميـد - أنـه قـام بزيـارة السـفارة الانجليزيـة بعـد الانقلاب الذي صنعوه على السلطان عبد الحميد عام 1909.

كان يتوقع أن يلاقيه السفير بالترحيب والسعادة لكنه تفاجأ من الاسـتقبال البـارد للسفير الانجليزي. وبعد ذلـك بسـنوات ذهـب إلى انكلـترا بمهمـة مـن الإتحـاد والترقـي وهناك قابل السفير الانجليـزي لـورد نيكلسـون الـذي كـان سـفيراً وقـت الانقـلاب عـلى السلطان عبد الحميد، فسأله في معرض حديثة معه عن سبب الاستقبال البـارد لـه بعـد نجاح الانقلاب في ذلك الوقت. فقال له السفير:

((نحن دعمناكم وشجعناك للإطاحة بالسلطان والخلافة، لكن بعد الانقلاب بقي السلطان وبقيت الخلافة)).

فقال رضا:

((أنا لا أعلم، وما المهم من الخلافة ؟؟)).

فقال السفير:

((نحن نحكم الهند ومصر، أكبر مستعمرتين وجلهم مسلمون، نحن ننفق الملايين من الذهب لنشتري الولاء منهم، ولا ننجح. ومع ذلـك رسـالة واحـد مـن السـلطان لهـم باسمه كخليفة، تجعلهم كلهم في خضوع وخشوع وطاعـة، لـذلك أردنـا أن نلغـي هـذه السكينة المسلطة على رقابنا)).

أحب شرب الشاي على الجبهة أمام العدو الايطالي

هناك الكثير من الأبطال الذين قادوا العمليات العسكرية ضـد القـوات الايطاليـة في ليبيا، ولعل أبرزهم شـيخ المجاهـدين عمـر المختـار. كـما أن هنـاك مئـات المتطـوعين الأتراك الذين سقوا بدمائهم التراب الليبي الغالي. لكن ماذا نعرف عـن بطلنـا الانجليـزي "جون سمولوود " ..؟.

في عام 1912 وصل الصحفي الفرنسي جورج ريمون الى ليبيا ليكتب تقرير مطوّل عن "معسكر عين منصور "، وكتب في تقريره عن "جون سولوود " فيقول:

((هذا الضابط الانجليزي غريب، فقد أصبح مسلماً واختار لنفسهِ اسماً جديداً هو عثمان أفندي، وجاء للقتال مع الأتراك ضد ايطاليا، وأنا متأكد أن الايطاليين قتلوه، فلقد وجدوه مقتولاً على الجبهة. كان هذا الرجل المسلم الأشقر رقيق جدا، ولقد كُسر أنفهُ خلال مباراة ملاكمة. كان شجاعاً للغاية ونظر إلى الحياة على أنها لعبة رياضة. وقال لي انه يستمتع عندما يذهب في بعض الأحيان خلال النهار لإعداد الشاي أمام الخطوط الإيطالية بشجاعة، أو التسلل تحت جنح الظلام إلى مدينة درنة والتحصينات الإيطالية. وقال لي انه سوف يأخذ بعض الصور بالقرب من الخطوط الإيطالية تحت ضوء القمر، ووعدني أن يعطيني بعض الصور لأنشرها في بلادي، لكنه لم يعد أبدا)).

يُعتبر عثمان أفندي من أبطال المقاومة الشعبية الليبية ضد الاحتلال الإيطالي. ولقد أستشهِد مع بعض رفاقه الليبيين والأتراك في عملية ليلية. فرجل انجليزي جاء مع أتراك للقتال في صفوف المقاومة الليبية تصرف لا يفهمه أصحاب القومية الضيّقة.

نيران صديقة

يعتبر الشاعر والأديب سليمان نظيف من الشخصيات السياسية العثمانية المرحة، شغل عدة مناصب داخل الحكومات العثمانية. في أحد الأيام وبينما كان سليمان نظيف والياً على بغداد عام 1913، دخل علية أحد الموظفين وأعطاه برقيه مستعجلة من حافظ حقي قائد الجيش العثماني الثالث، وبينما كان سليمان يقرأ البرقية بدت علية علامات الدهشة والاستغراب. الأمر الذي أخاف الحاضرين.

كان مكتوب بالبرقية:

" نحتاج عشره آلاف كلغم سكر، وألف كلغم شاي، الرجاء شحنها خلال 24 ساعة من تاريخ البرقية ".

عَلِم سليمان أن الرسالة موجّهه بالخطأ إليه، وإنما أرسلها حافظ حقي إلى مركز تموين الجيش بالعاصمة، فوصلت إليه بالخطأ. فأمر بكتابة رسالة لحافظ قال فيها: ((برقيتكم الموجهة للإمبراطور الصيني وصلت إلينا بالخطأ، ووجب إعلامكم بذلك)).

العبيد في الدولة العثمانية

لا توجد دولة في العالم عاملت الرق والعبيد بمعاملة حسنة وطيبة كما فعلت الدولة العثمانية والشعب العثماني، فكانت الحقوق والقوانين تضبط معاملة العبيد والجواري على عكس تلك الموجودة بأوروبا حيث يلاقوا معاملة سيئة. ألغى السلطان عبد المجيد في منتصف القرن التاسع عشر العبودية وتجارة العبيد، سابقاً الكثير من الدول الأوروبية حتى الولايات المتحدة الأمريكية بعشرات السنين. وقال كلامه الشهير:

((يجب أن يتغير العالم، لا يمكن أن يبقى الإنسان يعامل أخاه الإنسان بهذه الطريقة الوحشية)).

هذه المعاملة للعبيد كانت محط إعجاب لكل الأوروبيين، يقول المستشرق براير:

((إن خير شعب في معاملة خدمهِ وعبيده هم العثمانيون. يعاملونهم كأنهم من أفراد العائلة. يخافون من الفرية، ويعتقدون أنها من الذنوب الكبائر. يعتبرون قطع الأشجار بلا ضرورة وحشية، ويعاملون قاطعها بقسوة)).

ويقول المارشال الألماني الشهير فون مولتكه[1] الذي عاش وعمل في الجيش العثماني في بداية القرن التاسع عشر واصفا حياه العبيد:

((الفرق بين العبد في الدولة العثمانية والعبد في أمريكا فرق هائل. كالفرق بين

1 قائد ألماني عسكري شهير 1800-1891, صاحب الانتصار الساحق لألمانيا على النمسا, والانتصار الألماني على فرنسا عام 1870. عمل في الجيش العثماني قبل الرجوع لبلاده كضابط تدريب وتطوير, كتب كتاب شهير من مجموعة رسائل عن الدولة العثمانية.

الـثرى والثريـا. ووضـع الخـادم المُشـتري أحسـن بكثـير مـن الخـادم الأجـير. لا يرهِـق العثمانيون العبيد ويلاقون معاملة جيدة عند مرضهم، إن الحريـات التـي يتمتعـون بهـا أكثر بكثير من تلك الحريات في أوروبا. والعبد هو أحد أفراد البيت يأكل ويشرب معهـم ويلبس مثلهم. وعندما يبلغون سنا معينه يزوجه سيده ويعتقه. ويشكل أسرة كغيره من الأحرار. إن هناك كثير من العبيد من يصبح صهراً لسيده)).

في عام 1847 لم يتمالك زوار أمريكيون أنفسهم مـن الدهشـة عنـدما شـاهدوا في اسطنبول ضابط اسود على ظهر جوادهِ يتبعه جنود بـيض يسـيرون خلفـه عـلى الأقـدام. حتى لمّا وصلت العنصرية ضد السود في أمريكا وأوروبا حداً لا يصـدق في القـرن التاسـع عشر، كان الطيار الأسود أحمد علي أفندي من صقور سلاح الجو العثماني. ولد في نيجيريا وعاش في إسطنبول، ويعتبر أول أسود في العالم يقـود طـائره. في الوقـت الـذي كـان فيـه السود ممنوعين من الركوب في الحافلات في أوروبا والولايات المتحدة.

الأمير عابد أفندي العثماني الشجاع

كان الأمير عابد أفندي أصغر أبناء السلطان عبد الحميـد الثـاني، ولـد عـام 1904. ولمّا تم الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني سُمح له بالبقاء مع والدهِ لصـغر سـنه. فاهتم به السلطان كثيراً، ويعتبر هو الولد الوحيد الـذي تـربى بـين يـدي السـلطان بهـذا الشكل فاختلط بوالده كثيرا وأخذ عنه أخلاقه وشجاعة آل عثمان. وكان يعيش مع والدهُ في قصر بيلر بي أثناء إقامة السلطان تحت الإقامة الجبرية على ضفاف البوسفور.

في احد الأيام عند عودته من المدرسة العسكرية التي كان يدرس بها الأمير، هبّت عاصفة جوية شديدة وهو على متن البـاخرة التـي تنقـل النـاس إلى الضـفة الأخـرى مـن اسـطنبول، وأخـذت البارجـة بالتـأرجح وتـرتطم بالرمـال، ولم تسـتطع أن ترسـو بالمينـاء، فأخذت تطلق إشارات الاستغاثة، فهرعـت أليهـا فـرق إنقـاذ المينـاء والسـواحل. ومـا أن سمع السلطان حميد إشارات الاستغاثة حتى هرع إلى الباب، وعندما رأى البـاخرة التـي يركبها كل يوم الأمير في طريق عودته هي من أطلقت تلك الإشارات صاح:

((أواه.... ابني في الباخرة))

وعند وصول قوارب النجاة بواسطة جنود الميناء، أول من توجهوا إليه كـان عابـد أفندي لأنه أمير ولحداثة سنهِ التـي لم تتجـاوز العـاشرة بعـد. الّا أن عابـد أفنـدي رفـض النزول وقال:

((لن أخرج قبل أن تنزل كل النساء والأطفال من السفينة أولا))

وأصرّ على ذلك ولم ينزل إلى مراكب النجاة إلا بعد أن نزل الجميع.

ولمّا دخل الأمير إلى القصر كان السلطان وجميع من في القصر ينتظره عند البـاب، فقبّل يد السلطان وأخبره بما حدث معه. أمّا السلطان فقد ضمّه بشدة إلى صدره وقال:

((أحسنت يا بني، هكذا يجب أن تكون، كم أنا فخور بك يا بطل)).

علي الحناء

هناك الكثير من الشخصيات المدفونة في التاريخ ضحت بحياتها مـن أجـل وطنهـا ودينها، ومنهم الشهيد علي الملقـب " عـلي الحنـاء ". كـان عمـره لا يتجـاوز 16 عـام لمّـا التحق بالجيش للـدفاع عـن الـوطن. وبيـنما كـان المـلازم فـاروق يتفقـد ويتحـدث مـع المجندين الجدد القادمين الى الجبهة في معركة جناق قلعة[1]، لفت انتباهه جنـدي صـغير في مقتبل العمر كان صابغا شعره بالحناء.

اقترب منه وسأله: ((ما أسمك يا أبني ؟))

قال: ((أسمي علي يا سيدي))

فقال له الملازم: ((ومن أين أنت ؟))

1 جناق قلعة أو شانكالي او معركة غاليبولي, هـي معركـة حـدثت بـين الدولـة العثمانيـة مـن جهـة وفرنسـا وبريطانيا من جهه أخرى. تعتبر مـن أقـوى وأشرس معـارك الحـرب العالميـة الأولى. كـان هـدفها احـتلال اسطنبول, إلّا أن العثمانيون أبدوا ضروبا من الشجاعة والخيال في القتال أذهلت الأعداء واستحقوا الـنصر تعتبر هذه المعركة وصمة عار في التاريخ العسكري الفرنسي والبريطـاني الـذين صرّحـوا قبـل المعركـة بـأن الانتصار مسألة أيام.

فقال: ((أنا من توكات يا سيدي))

الملازم فاروق بإبتسامة صغيرة:

((لماذا تضع الحناء على شعرك يا بني !؟))

فأجاب علي:

((هذا عادة لدينا يا سيدي قبيل الذهاب للقتال. لكن لا اعلم السبب)).

فقال الملازم فاروق: ((أهلا يا علي الحناء)).

فأخذ الجميع يضحك ويتبسم. إذ كيف يضع شاب الحناء على رأسه، فهذه عادة غريبة. وصار الجميع ينادونه بعلي الحناء. ومع مرور الوقت أحبه الجميع، فعلي لا يعرف إلا الحب والطاعة والبراءة. وفي يوم من الأيام نادى علي أحد أصدقائه في التدريب لكي يكتب له رسالة لأهله لأنه لا يجيد الكتابة، فالشوق لهم ولقريته أصبح لا يطاق. فكتب:

((أمي.. أبي... كم أشتاق إليكم، أقبّل أيديكما الطاهرة، لا تقلقوا علي فأنا هنا مع أصدقائي الجدد.... أمي إذا ذهب أخي احمد في المستقبل إلى القتال لا تصبغي شعره بالحناء مثلي، فلقد إستغرب الكل من هذا وأخذوا يسخروا مني)).

وفي يوم من الأيام أنزلت قوات التحالف أعداد هائلة من الجنود، وأخذ القتال يشتد والعثمانيون لا يستطيعون صد الهجوم الكاسح، وكادت أن تتقدم وتحتل المنطقة. فجاء علي إلى الملازم وقال له:

((يا سيدي يجب أن نشترك بالمعركة أنا والجدد فإخواننا يحتاجون للمساعدة)).

فقال الملازم فاروق:

((أعلم.. لكنكم يا بني لستم جاهزون بعد للقتال، وان ذهبتم سوف تستشهدون لا محالة)).

فقال على وفي نبرته رجولة وشجاعة:

((يا سيدي وإن يكن، نستشهد أو ننتصر، أرجوك دعنا نشترك..)).

فانطلق علي والأسود الصغار بشجاعة وقوه وعزيمة أذهلت الملازم فاروق ومن

شاهدهم، وهم لا يملكون الخبرة ولا حتى التدريب الكافي لكن قلوبهم القوية استطاعت أن تعيد الحماس للجيش وتقلب المعادلة. نعم انقلبت المعادلة واستطاع الجيش العثماني رد الهجوم، لكن أستشهد علي وجميع رفاقه، وسقوا بدمائهم الطاهرة أرض جناق قلعة.

بعد يوم تصل رسالة من توكات، أستلمها الملازم فاروق. لقد كانت الرسالة من والدة علي، وهي موجودة إلا اليوم في معرض جناق قلعة. فتح الملازم الرسالة وجسمه مقشعر واخذ يقرأ وعيناه تملأها الدموع ...

((يا بني... يا مهجه روحي وعيوني، كيف حالك يا بني ؟ هل أنت بخير، نحن مشتاقون إليك كثيراً...)).

الملازم فاروق يتابع القراءه وعيونه تغرقان بالدمع، وصوته يهتز من الحزن.

((يا بني... لا تحزن من الحناء التي وضعتها على رأسك، ولا تخجل من أصدقاءك، سوف أخبرك لماذا وضعت الحناء على رأسك. واخبر أصدقائك. نحن هنا لا نضع الحناء إلا لثلاثة أشياء:

للفتاة قبل أن تتزوج، وتضحي بنفسها لتصنع أسره..

ولمن يذبح الأضاحي لله تعالى..

وعلى رأس كل شاب يذهب ليضحي بنفسه ليقاتل من أجل وطنه ودينه)).

بعد أن أكمل القراءة لم يستطع الملازم أخفاء صوته العالي بالبكاء وأحتضن الرسالة وهو يدعوا لعلي بالرحمة ولوالدته بالصبر.

الرقيب محمد المُفجّر

تُعتبر معركة جناق قلعة من أشهر المعارك في الحرب العالمية الأولى التي جرت بين الدولة العثمانية من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى. ومع أن الدولة انتصرت بها على الأعداء، إلّا أن الفضل بعد الله يعود لمئات الأبطال الذين شاركوا بها من أتراك وعرب وأكراد. ومن أبطال هذه المعركة بطلنا الرقيب محمد الذي لُقّبَ

بالمُفجّر.

كانت الخنادق العثمانية قريبة جداً من خنادق العدو، وكان العدو الذي يملك الكثير من العتاد يرمي الكثير من القنابل اليدوية على الخنادق العثمانية. فكانت القوات العثمانية تعالج نقص القنابل عن طريق مسك القنابل البريطانية سريعا وإعادة رميها عليهم سريعاً قبل أن تنفجر. ومع أنها كانت خطيرة جداً وبحاجة إلى مهارة وسرعة عالية، كان بطلنا يتقنها بدقة، فكان يركض إلى القنبلة وهي في الهواء ليلتقطها ويرميها سريعاً. واستطاع أن يكبّد العدو خسائر فادحة بقنابلهم. وفي يوم من الأيام تأخر بطلنا قليلا وانفجرت القنبلة وهو ممسك بها، وبعد أن استيقظ وهو بالمستشفى شاهد أن يده اليمنى قد بُترت، فأخذ يبكي لأنه لن يعود للجبهة. لكنه كتب رسالة وهو على سرير الشفاء إلى قائد الفرقة قال فيها:

((سيدي... لقد فقدت يدي اليمنى، وهذا لن يمنعني من إكمال عملي فأنا قادر على عملي بيد واحده. أتمنى بعد أن أكمل علاجي أن أعود للجبهة فوطني بحاجه لي، أرجو أن تسامحونني...)).

وبعد كثير من الإلحاح عاد بطلنا المفجّر بين رفاقه وبيد واحده ليعود لسابق عمله. وظلّ يراقب العدو عند رمي القنابل ويعيدها عليهم بسرعة، لكن في نهاية المطاف استشهِد أخيراً محمد المُفجّر، عندما انفجرت به قنبلة كان يحاول أن يلقي بها على الأعداء.

أخلاق الجندي العثماني

في معركة جناق قلعة دار قتال رهيب بين القوات العثمانية وقوات التحالف البريطانية والفرنسية، إشتد القتال لدرجة أن الجنود اشتبكوا بالحراب. يقول الملازم كيسي الذي اشترك في تلك المعركة وأصبح لاحقاً حاكماً عاماً على أستراليا هذه الحادثة التي لم ينسها طيلة حياته:

((في يوم 25 من شهر نيسان، دار قتال شديد لم أرى في حياتي مثله في موقع

جونكبايري، كانت المسافة بين خنادق القتال حوالي 8-10 أمتار. بعد الهجوم بالحراب وقف القتال لفترة من الزمن. إنسحب الجنود إلى خنادقهم.. وإذا بصيحات استرحام تشق عنان السماء وسط خنادق الطرفين، يطلقها نقيب إنجليزي بترت ساقه أثناء المعركة.. ولكن لا أحد يجرؤ على الخروج لمساعدته، إذ مع أدنى حركة ينطلق وابل من الرصاص يدوّي فوق الرؤوس.

في تلك الأثناء حدث شيء مذهل، إذ بدت يد من ين الخنادق العثمانية تلوّح بملابس داخلية بيضاء، ثم خرج جندي عثماني شجاع من خندقه خروج الأسد دون سلاح وجّهنا أسلحتنا صوبه نراقبه بحذر، لم نعد نسمع إلا أنفاسنا ولن نشعر إلا بصدورنا تعلو وتهبط. بدأ الجندي يمشي ببطء نحو خنادقنا، وعندما وصل إلى النقيب الجريح، انحنى عليه ثم أحتضنه برفق وتأبطه وبدأ يمشي به نحونا.. وما إن وصل إلينا حتى وضعه على الأرض بلطف، ثم عاد من حيث أتى.. لم نجد فرصة لشكر ذلك الجندي الباسل الذي واجه الموت من أجل مساعدة عدوه الذي يحاربه...

ظل الجنود في ميادين القتال يتحدثون أيّاماً عن ذلك الجندي الشجاع وأخلاقه العالية الذي أبدى إحتراماً من نوع آخر تجاه الإنسان وكرامته، وقدّم للإنسانية درساً عن الحب والرحمة من الإنسان لأخيه الإنسان حتى في ميادين القتال، نقدّم تحياتنا واحترامنا إلى أولئك الجنود الذي أبدوا بسالة تستحق الثناء والتقدير)).

لذلك كان الانتصار في هذه الملحمة لصالح العثمانيين، ليس بسبب عدد أو قادة بارزين بل بسبب الروح العالية التي تمتع بها الجندي العثماني تجاه دينه ووطنه، والتي جعلت قائد قوات الأعداء ايان هاملتون يقول بعد الخسارة:

((لقد صنعنا وقاتلنا بكل شيء لكننا لم ننتصر، يبدو إننا لم نكن نقاتل الأتراك وحدهم، بل كنا نحارب إلههم)).

في صحراء ليبيا

لمّا احتلت إيطاليا ليبيا من العثمانيين، لم تكن الدولة العثمانية في ذلك الوقت قادرة على الحرب ضد ايطاليا بسبب الحروب بالبلقان، لذلك فتحت باب الجهاد لنصرة الأشقاء الليبيين. وبالفعل سافر مئات الأتراك والعرب تلبية لنداء الجهاد. كان المتطوعون ممن خدموا بالجيش العثماني، فقاموا بتدريب الأهالي وتعليمهم فنون القتال. كانت القوات الايطالية الوحشية تقتل كل الأسرى بمحاكمة صورية، وحدث مرّه في إحدى المحاكم أن أدخلوا على القاضي الايطالي كارلو تورللي، ثلاثة أسرى أتراك.

نظر إليهم القاضي وهو مستغرب، إذ كيف يأتي هؤلاء من أقصى الدنيا لمساعدة أناس ليسوا من قوميتهم، وصُعق أكثر عندما علم أن الثلاثة هم جد وابن وحفيد من عائلة واحدة.

كان الشيخ هو الميرلواء الجنرال المتقاعد محمد باشا... وابنه الميرالاي أحمد علاء الدين محمد... والحفيد هو الشاب محمد.

فقال لهم وهو مستغرب:

((من أنتم؟))

وقبل أن يقوم مترجم المحكمة بترجمة إلى المتهمين تقدم الرجل خطوة إلى الأمام وقال بلغة إيطالية سليمة:

((اسمي الميرالاي أحمد علاء الدين الضابط العثماني في خدمة مولاي السلطان... وهذا "مشيراً إلى والده" والدي الميرلواء المتقاعد محمد باشا... وهذا " مشيراً إلى ابنه" ابني محمد الجندي المتطوع في الجيش العثماني)).

استولى الذهول على أعضاء المحكمة وعلى الحاضرين في المحكمة وتبادل الصحفيون والحضور نظرة حائرة. جنرال متقاعد يتطوع في الجيش وتحت إمرة ابنه ويقاتل العدو كأي جندي آخر!! ثم أيّ عائلة هذه التي يجتمع فيها الجد مع الابن مع

الحفيد ؟!.

فقال القاضي: ((هل لديك أوراق رسمية تثبت ما تقول؟))

أخرج الضابط أحمد ورقة من جيبه وقال:

((هذا هو الأمر الرسمي لتعييني. إن قام مترجمكم بترجمة هذه الورقة الرسمية لكم فسترون أنها أمر رسمي بتعييني قائدا للواء الثاني من الفدائيين العرب في ولاية طرابلس وهو صادر من السر عسكر[1] العثماني)).

وضِع القاضي بحرج شديد فهذا يعني أنه مجبور بإجراء محاكمه عسكرية وليس محاكمة متمردين، والتقيد بالقوانين الدولية.

فقال القاضي:

((أنا لا أعترف بهذه الورقة. وأمر المدّعي العام أن يتلو التهمة)).

قرأ المدعي العسكري التهمة الموجهة إليهم وهي قيامهم في 26 من شهر تشرين الأول من تلك السنة بمهاجمة الجيش الإيطالي وضربه من الخلف ضربة خائنة. فوقف العقيد أحمد علاء الدين وقال بصوت جهوري وشجاع:

((لم نضربكم من الخلف، بل هجمنا عليكم من الأمام، علماً بأننا كنا قلة قليلة، كل ما كنا نملكه كان عبارة عن 400 بندقية، ولا تزعجوا أنفسكم من هذه الناحية... ستجدون أن 350 بندقية ستصوّب إليكم في القريب العاجل. أما البنادق الباقية وهي 50 بندقية فقد استشهد 15 مجاهدا من حامليها، وتم القبض على 35 مجاهدا مع بندقيته وأعدموا من قبل محكمتكم العادلة)).

ظهر الانزعاج واضحاً في وجه رئيس المحكمة العسكرية، وقال وهو يريد أجوبة سريعة وقصيرة:

((هل شاركتم في هذا الهجوم أنت وهذان مشيراً إلى أبنه ووالده؟))

فقال أحمد:

((أنا لم أشارك فقط، بل أنا من قاد الهجوم. ووالدي الجنرال المتقاعد تتطوع

1 السر عسكر يعادل اليوم وزير الحربية.

تحت إمرتي هو وولدي أيضاً، ولقد قاتلناكم بشرف وشجاعة)).

فقال القاضي:

((هل قمتم بتدريب الأهالي على العصيان والقتال ضدنا.؟))

فقال العقيد أحمد:

((إن ولاية طرابلس ولاية عثمانية، وسكانها مواطنون عثمانيون، وقد ألحقتهم بوحدتي ودربتهم وقدتهم للدفاع عن وطنهم الذي هو أيضاً وطني)).

فقال القاضي:

((يكفي هذا، لقد حكمت المحكمة عليكم بالإعدام فوراً، وسيتم تنفيذ الحكم الآن)).

يقول أحد الصحفيين الذي كان في المحكمة:

((لم تبهت الابتسامة التي كانت مرسومة على شفاه المتهمين لدى سماع القرار بل هتف العقيد العثماني بصوت واثق: ((يحيا السلطان)).

أما والده الجنرال العثماني المتقاعد فقد هتف: ((الله أكبر.. الله أكبر)).

أما الحفيد الشاب فقد بقي صامتاً احتراماً لوالده ولجده.

قاد الجنود المتهمون من قاعة المحكمة... وبعد فترة قصيرة سُمع أصوات طلقات أطلقها ثلة من الجنود، فقد نُفّذ الحكم فيهم بسرعة وبعد خروجهم من المحكمة مباشرة.

صائد البارجات مصطفى أرطغرل

تعتبر البارجة سفينة ضخمة مخصصة للحروب وتحوي الكثير من المدافع ذات المدى الطويل، كما تحوي الكثير من رشاشات ومدافع الحماية. لذلك لكي يسقطها العدو فهو بحاجة لجيش أو بارجة أخرى ضدها. في هذه القصة سنتعرّف على رجل بجيش إنه مصطفى أرطغرل أحد أبطال أمتنا والدولة العثمانية. ولِد بطلنا في كريت 1893 والتحق في الكليات العسكرية وتخرج منها والدولة تشترك في الحرب العالمية الأولى. كان مصطفي شخص ذكي ويتمتع بمهارات قنص فريدة، لكن هذه المهارة

ليست ببندقة بل بالمدفع، وفي عام 1916 يلقن بطلنا البحرية البريطانية المتعجرفة درسا تبكي لأجله، إذ استطاع أن يتسلل بنجاح ويصوب أحد مدافعة على البارجة البريطانية " بن ماي شري " التي كانت تُعتبر فخر الصناعة البحرية البريطانية وقام بالتصويب عليها وبحساباته المعقدة استطاع أن يجعلها كتلة من اللهب وغرقت سريعاً وأعتبر هذا الحدث سابقة في تاريخ الحروب البحرية. كما استطاع إغراق البارجة الفرنسية " باريس تو " عام 1917، واصطاد أيضا البارجة الفرنسية " الكساندرا ".

وبمهارته الفريدة استطاع أن يكبّد فرنسا وبريطانيا خسارة فائقة بإغراق هذه البوارج التي تحتاج لجيوش لصدّها.

بطولات عثمانية على أرض غزة

كانت التعليمات قد وصلت لكل الجنود المرابطين على أرض فلسطين بأن بريطانيا وفرنسا تستعد لإرسال جيوشها لاحتلال المنطقة. وعلى كل فرد الدفاع بشرف حتى آخر جندي ودون ذلك الدماء وعدم تسليم الأرض المباركة. ومن تلك الجنود فرقة أضنه المرابطة على استحكامات غزة.

بعد وصول هذه الأخبار اقسم كل شباب الفرقة بالموت والدفاع عن أرض الوطن رغم أن معظمهم من مدينة أضنه في تركيا اليوم. ومن هؤلاء الأبطال النقيب إبراهيم الذي سوف يقود هذه الفرقة إذا تقدم العدو وفكر في العبور.

كانت القوات الإنجليزية تفوق القوات العثمانية بعشرة أضعاف، ولا يملك العثمانيين من الذخيرة ما يقاوم جحافل الإنجليز لساعة واحدة. لم تكن التوقعات كاذبة وبالفعل بدأ الإنجليز بالنزول على سواحل غزة، وتشمّر الأسود، وأخذ إبراهيم يتجول ويحمّس الجنود ويقول:

((أيها الأبطال ها هو العدو أمامكم ولقد جاء بإعداد لا تحصى، وأن ذخيرتنا أقل من عددهم حتى. لكن لن ننتظر منهم أن يحاصرونا سنقذفهم بكل ما نملك من رصاص، ثم نهجم عليهم بالحِراب، فإما أن ننتصر عليهم وإما أن نستشهد كلنا ...

ثبّتوا حرابكم على البنادق وتوكلوا على اللـه.. ويا رب لا تشمت بنا الأعداء)).

وما هي إلا دقائق وبدأت بنادق الأبطال تحصد العدو، وبعد أن نفـذت الـذخيرة أمر النقيب إبراهيم الكل بالهجوم والاشـتباك بـالحراب والخنـاجر. زحفـت فرقـة أضـنه كالأسود تجرف كل ما يقف أمامها من العدو، وبشهادة الكل كان إبـراهيم يتقـدم الكـل ويمزق العدو. وما النصر إلّا صبر ساعة، وتفرّ جحافل الإنجليز من أمـام الأبطـال بعـد أن تكبدوا خسائر فادحة واستشهد من فرقة أضنه الكثير.

نُقل النقيب إبراهيم فاقداً الوعي ومثخناً بالجراح. وبعد ساعات استيقظ النقيب إبراهيم في المستشفى الميداني، كان أول ما نطق به هو:

((ماذا حدث؟ أخبروني ماذا حدث ؟)).

فأخبروه بأن النصر كان حليف الأبطال العثمانيين. وأخذ يسأل عن زملائـه واحـداً واحد، وألم الفرقة يمتزج بألم الجراح. في هذه اللحظـات يـأتي البريـد، ويـتم توزيـع بعـض الرسـائل عـلى مـن بقـي حيـاً، أمّـا اغلـب الرسـائل فبقـت مُغلقـة لاستشـهاد أصـحابها.))النقيب إبراهيم.. تفضل يا سيدي هذه رسالة لكم من زوجتك)).

امسك النقيب إبراهيم الرسالة بصعوبة، وأخذ يقرأ:

((زوجي العزيز .. يا عماد بيتنا. كيف حالك ؟ إنني أعُد الأيام أنـا وطفلنـا الـذي أصبح عمره الآن ثلاثة أشهر لكي تعود إلينا سالماً من الجبهة)).

عند هذه الكلمات توقف النقيب إبراهيم بك عن القراءة، وسـقطت يـده وهـي مازالت ممسكة بالرسالة بقـوة... وانتقلـت روحـه الطـاهرة إلى ربهـا. استشـهد النقيـب إبراهيم متأثرا بجراحه على ارض غزة . وقد سطّر لنا ما هو الوطن وعرّفنا كيـف تكـون الشهادة.

العلم بعيون العثمانيين

يروي الكاتب اليوناني انـدرياس نينـداكيس في كتابـه "Büyükbaşlar 1922 " بعـض قصص طفولته التي عاشها في جزيرة كريت فيقول:

((انتهت الحرب البلقانية واستطاع أبي ورفاقه أن يهزمـوا العثمانيـين، وفي طريـق عودته إلى الديار أحضر والدي معه علماً عثمانيا كان قد غنمه مـن المعركـة. تمـر الأيـام، وفي حرب الاسترداد التركية 1921 ضد اليونانيين كانت الأجواء مشحونة، وكـان لي صـديق تركي أسمه علي، كنت قد أخبرته بالعلم. وكان قد طلب منـي أن يـراه، وبعـد أن أخـذت الإذن من والدتي جاء علي إلى بيتنـا ومعـه أختـاه الأكـبر سـنا منـه. جـاءت أمـي بـالعلم وأعطته لعلي. جثوا على ركبهم وأخذت دموعهم تنهمر، أنا لا أصدق مـا أرى ولا اصـدق كيف أخذت الفتاتان تمرران يديهما على العلم، وكيف كـان عـلي يحضـن العلـم ويقبـل الهلال والنجمة. لقد صُدمت مما أبداه هؤلاء الأتراك لعلمهم .

في اليوم التالي جاء علي ومعه أصدقاءه ليريهم العلم، ولن أنسى كيف سقطوا على ركبهم ودموعهم تنهمر حين رأوه. أخذوا يقبّلونه ثم غادروا بهدوء. من ذلك اليوم وهـم يحترمونني، وأنا أيضاً أحترمهم وأشعِرهُم أنني واحد منهم)).

حي المهاجرين وناظم باشا

في إحدى ليالي صيف عام 1929؛ ظهر في حي المهاجرين في دمشق رجل طاعن في السن، جاوز الثمانين بقليل، قادم من جهة العفيف، كان مرأى شارع "المهاجرين، سـكة" يؤجج في نفسه نار ذكريات قديمة تجاوز عمرها الأربعـين سـنة... كـان يسـير في الجانـب الأيسر مـن الطريـق المـؤدي إلى نهايـة خـط المهـاجرين، وكـان يحـدّق بجـدران البيـوت وأحجارها؛ كأن له مع كل بناء من هذه الأبنية وكل حجر من هذه الأحجار قصـةً مـؤثرةً وحكايةً مؤلمة؛ إلى أن وصل إلى بناء كبير شاهق وقف عنده يتأمله ويتمعن فيه، ويرمقه بنظرات حزينة تصاحبها زفراتٌ عميقة وعبراتٌ متدفقة....

هذا البناء الشـاهق الـذي انتصـب وسـط الجنـائن الواسـعة، وكـان يخطـر عليـه

الجندي الفرنسي الذي يحمي حمى رئاسة الجمهورية الفرنسية التي احتلت سورية، قد كان يوماً ما قصر الوالي العثماني....

كان ينظر إلى القصر نظر العاشق الولهان، ولا أحد يدري؛ أكان له يوماً حبيبٌ يقطن هنا؟ أم أنه هو كان من سكان هذا القصر، وبينما هو يتأمل القصر إذا بالحارس الفرنسي يسأله بسخرية وعنجهية وبلغة عربية ركيكة:

((ماذا تفعل هنا أيها المتشرد؟))

فلم يعرف بماذا يجيب، وعاد العجوز يسير في الشارع الطويل، بعد أن هاجت في نفسه أحاسيس لا قبل له بها، فوصل إلى زقاق ضيق، ورأى بيتاً له باب خشبي قديم مهترئ من بعض أطرافه، ثم قرع الباب قرعة ضعيفة، فجاءه صوت امرأة من بعيد يخرّ خريراً عميقاً يسأل من الطارق، ولما فتحت الباب؛ قال بصوت متهدج وبلغة تركية: ((هل محمد أفندي موجود))

فسألت المرأة بتعجب واستنكار: ((من هذا الذي يسأل عن محمد أفندي، ومحمد أفندي قد مات منذ خمس عشرة سنة؟))

فالتاع الشيخ وتحسّر وسكت قليلاً، ثم قال:

((رحمه الله عليك يا محمد أفندي، وأسكنك فسيح جنانه))

فتدغدغ خيال المرأة العجوز بهذا الصوت، وشعرت بقلبها كأنه يهبط بقوة، فأمعنت النظر بهذا الشيخ العجوز وقالت له:

((بالله عليك قل لي من أنت؟!، اقترب حتى أراك بوضوح))

ورفعت مصباح الكاز إلى وجهه، فأجفلت وارتجفت ورجعت إلى الوراء واختلط عليها الأمر وتلعثمت وقالت:

((غير معقول، أنت ...))

فقال لها الشيخ العجوز:

((هل عرفتني يا أم أحمد...))

قالت: ((آه... كيف لا أعرفك يا سيدي... ولكن لا أنا واهمة إن هذا

مستحيل، قل لي حالاً من أنت؟...))

تراجعت إلى الخلف وكأنها تريد إغلاق الباب بعد أن ظهر عليها الخوف والفزع.

فقال لها: ((لا تخافي يا أم أحمد، نعم أنا (ناظم) الذي كان اسمه يوماً ناظم باشا، لقد استبد بي الشوق وحننت إلى دمشق المدينة التي أحببتها والحي الذي عشقته فيها، والذي أمضيت معظم حياتي به، فعدت إليه أزوره)).

ازداد ارتباك تلك السيدة، وقالت:

((سيدي أنا لا أستطيع أن أقدّم لك شيئاً اليوم إنني امرأة عجوز بائسة....))

فقال لها:

((لا تكملي... لقد جئت فقط لأزور محمد أفندي الذي كان مساعداً لي وقريباً إلى قلبي..)).

مسح الباشا دموعه، وخرج الوالي السابق من الزقاق الضيق، وهو يتألم لوعة وحسرة، وينظر إلى دمشق التي عاد إليها يناديها فرآها غريبة عنه، عرفته أبنية دمشق ولم يعرفه سكانها، حقاً إن الإنسان ينسى ويُنسى، ولكن للحجر ذاكرة لا تنسى...

بعد أن خرج الوالي السابق من الزقاق رفع رأسه فرأى لوحة على الجدار كتب عليها: " شارع ناظم باشا ". مشى متثاقلاً في المكان الذي يحتوي اليوم على حديقة النيربين في ساحة خورشيد، ثم نزل ببطء إلى أن وصل إلى حافة نهر بردى حتى وصل إلى الوادي الكبير الذي يسمى " كيوان "، ومشى في الشارع الذي يؤدي إلى الربوة " شارع بيروت أو شارع شكري القوتلي"، ثم تغلغل بين أشجار الزيتون والمشمش التي على يسار الشارع والتي مازالت اليوم في واد يسمى بـ وادي عتمة ذلك الوادي المحاذي لزقاق الصخر، وهو اليوم مقابل لحديقة تشرين، وغاب عن الأنظار، حيث لم يعد يره أو يسمع عنه أحد.

حسن الإغْدِرلي آخر جندي عثماني يغادر الأقصى

الكل يعلم أن القدس وقعت تحت الاحتلال البريطاني عام 1917، بعد هزيمة الدولة العثمانية. لكن ما لا تعلموه أن هناك 53 جندياً عثمانياً رفضوا الخروج من القدس لحمايتها من النهب والفوضى بعد أن قرروا البقاء لحماية المدينة لدى دخول جيوش الاحتلال. في عام 1972 قابل الصحفي التركي إلهان بردكجي العريف حسن آخر المتبقين، فقال له العريف حسن:

((بقيتْ وحدتُنا كلها في القدس... لأننا ما رضينا أن يقول الناس "تخلت الدولة العثمانية عنا"... أردنا ألا يبكي المسجد الأقصى بعد أربعة قرون... أردنا ألا يتألم سلطان الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم... لم نرض أن يستغرق العالم الإسلامي في مأتم وحزن... ثم تعاقبت السنون الطويلة ومضت كلمح البصر...

ورفاقي كلهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى واحداً واحداً... لم يستطع الأعداء أن يقضوا علينا، وإنما القدر والموت... وها أنا ذا العريف حسن لا زلتُ على وظيفتي حارساً على القدس الشريف... حارساً على المسجد الأقصى....

يا بني... عندما تعود إلى الأناضول اذهب إلى قرية "سنجق توكات"، فهناك ضابطي النقيب مصطفى الذي أودعني هنا حارساً على المسجد الأقصى، ووضعه أمانة في عنقي... قبِّل يديه نيابة عني وقل له:

((سيدي الضابط، إن العريف "حسن الإغْدِرلي" رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الحارس في المسجد الأقصى، ما زال قائماً على حراسته في المكان الذي تركته منذ ذلك اليوم، ولم يترك نوبته أبداً... وإنه لَيرجو دعواتكم المباركة)).

ظل العريف حسن حارساً على الأقصى يخرج كل صباح يقف بجانب المسجد كأحد موظفيه تاركاً وطنه وأهله، وفي قلبه شجاعة ووفاء وعزه لا يعرفها إلا الشرفاء. لكن الموت الذي أخذهم واحدا تلو الآخر يأخذ في عام 1982 آخر حراس الأقصى.

الدواء العثماني إلى الشرق

قبل أعوام نشرت الخلافات بين اليابان وكوريا الجنوبية ظلالها على العالم حول تسمية البحر بين البلدين، فاليابان تصر على أن يبقى اسمه بحر اليابان، بينما كوريا تقول أن أسمه الأصلي هو بحر الشرق. شكلت تسمية البحر مشكلة دبلوماسية ليست بين البلدين فقط بل انتقلت إلى سائر العالم. السبب في انتشار اسم بحر اليابان أو بحر الشرق يعود إلى توقيت تسمية المناطق في أنحاء العالم، في بداية القرن الـ20 عندما كانت تخضع كوريا للحكم الاستعماري الياباني، حيث لم تستطع كوريا المشاركة في مرحلة صنع القرار الخاص بتسمية هذا الاسم. واثّرت مكانة اليابان في وقتها على فرض تلك التسمية. في عام 2002 نجحت كوريا الجنوبية أخيراً في تغيير الاسم في المؤتمر الخامس عشر للهيدروغرافيا في موناكو بعدما قدّمت للجنة خارطة عثمانية قديمة تثبت فيها أن البحر كان اسمه بحر الشرق.

هذا النجاح لكوريا الجنوبية لا يعود للخارطة العثمانية فقط، بل لتفوقها في قرأه الأرشيف العثماني، كيف سيكون الأرشيف العثماني دواء لمنطقتنا ونحن نقع داخله وليس في أقصى الشرق إن استطعنا استغلال هذا الكم الهائل من الأوراق في خدمة قضايانا.

المراجع

- محمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي).
- علي ابن محمد اللخمي الاشبيلي ، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان ، تحقيق: هانس أرنست (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1962).
- يلماز ازوتونا ، تاريخ الدولة العثمانية (جزآن)، ترجمة: عدنان سلمان (إستانبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)
- محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية(القاهرة : مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع ، 2014).
- محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة (القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية بحوث العالم التركي،1994)
- أحمد آق قندز و سعيد اوزتورك ، الدولة العثمانية المجهولة (استانبول: وقف البحوث العثمانية ، 2008).
- أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة (جزآن)، ترجمة: صالح سعداوي (إستانبول: مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية ، 1999).
- عزتلو يوسف بك آصاف ، تاريخ سلاطين بني عثمان (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، 2014).
- خليل إينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الأنحدار ، ترجمة: محمد الأرناؤوط (بيروت: دار المدار الإسلامي ، 2014).
- جان البوجونج ، بصمات خالدة في التاريخ العثماني ، ترجمة :عبير الشناوي (القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر ، 2015).
- فيلب مانسل ، القسطنطينية المدينة التي إشتهاها العالم *1453-1924* (جزآن)، ترجمة مصطفى محمد قاسم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2015).
- برنارد لويس ، إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة: سيد رضوان علي (الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع ، 1982).
- زياد ابو غنيمة ، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك (عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع ، 1983).
- مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة: محمد حرب (دمشق: دار القلم ، 1991).

- صالح كولن ، عبرات العثمانيين بطولات وتضحيات ، ترجمة: مجدي حسن (القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر ، 2013).
- موفق بني المرجة ، صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والصحوة الإسلامية (الكويت: مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، 1984).
- مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي ، والدي السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة: صالح سعداوي صالح (عمان: دار البشير للنشر والتوزيع ، 1991).
- مصطفى أرمغان ، التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية: جوانب غير معروفة من حياة سلاطين بني عثمان ، ترجمة: مصطفى حمزة (بيروت:الدار العربية للعلوم ناشرون ، 2014).
- مصطفى أرمغان ، السلطان عبد الحميد والرقص مع الذئاب ، ترجمة مصطفى حمزة (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون ، 2012).
- إيلبر اورتايلي ، إعادة استكشاف العثمانيين ، ترجمة:بسام شيحا (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون ، 2012).
- محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني: آخر السلاطين العثمانيين الكبار (دمشق: دار القلم ،1996).
- اورخان محمد علي ، روائع من التاريخ العثماني (القاهرة: دار الصحوة ، 1996).

مواقع شبكة الأنترنت

- مجلة حراء الاكترونية/ http//www.hiramagazine.com
- موسوعة ويكيبيديا الحرة / http//ar.m.wikipedia.org
- صفحة الإمبراطورية العثمانية على الفيس بوك/ www.facebook/ottoman.khelafa
- جريدة زمان التركية / www.zamanarabic.com
- موقع http://biriz.biz/osmanli/osmanlihikayeleri.htm

المحتويات



« سوف يقودك هذا الكتاب للتعرف على أسرار هذه الدولة وتاريخها الذي غيب عن الجميع اما جهلاً او عمداً بسرد مجموعة من الأحداث والقصص وروائع من التاريخ العثماني بأسلوب قصصي مشوق. وتغيير الصورة المشوهة التي رسمت في أذهاننا عن تاريخ عريق لدولة قادت الأمة لمجدها. »

مــركــز الكتــاب الأكاديمـي
عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري
ص . ب : 11732 عمّـان (1061) الأردن
تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+
الموقـع الإلكتروني :www.abcpub.net
A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net




9789957352875